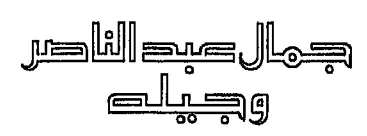
البروفسور ب. ج. فاتكيوتس

جمال عبد الناصر وجيله

تقديم [illegible] ب

ترجمة : سيّد زهران




جمال عبد الناصر
وجيله

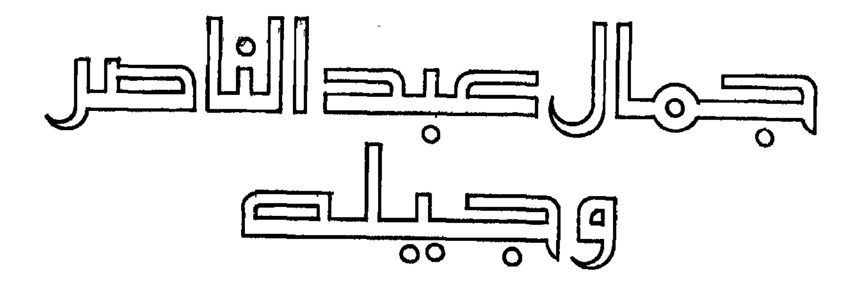
اهداءات ١٩٩٨

مؤسسة الاهرام للنشر والتوزيع
القاهرة

صورة الغلاف:

مجلس قيادة ثورة ٢٣ يوليو (تموز) كما ظهر عام ١٩٥٢. في الصف الأمامي من اليمين: أنور السادات، صلاح سالم، عبد الحكيم عامر، محمد نجيب، جمال عبد الناصر، عبد اللطيف البغدادي. وفي الصف الخلفي من اليمين: زكريا محيي الدين، حسن ابراهيم، كمال الدين حسين، جمال سالم، خالد محيي الدين، حسين الشافعي.

البروفسور ب. ج. فاتكيوتس



تقديم : الياس سحّاب
ترجمة : سيّد زهران




دار التضامن
للطباعة والنشر والتوزيع

مقدمة

كلما توقفت أمام كتاب جديد صادر في الغرب عن جمال عبد الناصر، فإن سيلاً من الخواطر والانفعالات يتدفق في ذهني وفي نفسي. عندما كنت في سنوات الشباب كان أول هذه الخواطر دائماً هو التأكد من موقف الكتاب، هل هو معاد أم مؤيد أم محايد. وكنت أتوسل لإشباع هذا الخاطر طريقة التصفح السريع للكتاب. فكنت إذا وجدت الكتاب أشد ميلاً إلى الحياد أو إلى الموقف الإيجابي من عبد الناصر، أسارع إلى عرضه في مقال أو أكثر، ولفت الانتباه إليه وحث القارىء على اقتنائه أو الإطلاع عليه. أما إذا وجدت الكتاب أشد ميلاً إلى التجني، إما بدافع من موقف مسبق، أو لنقص شديد في الموضوعية، أو لغرض دعائي مقصود بحد ذاته، فقد كان شغلي الشاغل عند ذاك الانكباب على ثغرات الكتاب، وخاصة في مجال المعلومات المبتورة أو المشوهة، فأعمل فيها كشفاً ونقداً، وأعتبر مهمتي قد أكملت نجاحها عند هذا الحد.

غير أن موقفي إزاء هذا النوع من الكتب الصادر في الغرب قد طرأت عليه بعد ذلك تبدلات كثيرة، لأسباب عديدة أهمها من غير شك إكتشافي، بعد خبرة، أن إقبال الدارسين الغربيين على كتابة الأبحاث والأطروحات الجامعية في أهم أحداث ومنعطفات التاريخ العربي المعاصر، يفوق أضعافاً مضاعفة إقبال الباحثين العرب. ولو توقفنا (على سبيل المثال) عند العام ١٩٤٨، وهو أخطر مفاصل التاريخ العربي في القرن العشرين، حين أقيمت دولة إسرائيل على أرض فلسطين العربية، فإن الطرف الصهيوني في الصراع قد أصدر، منذ سنوات طويلة، توثيقاً أكاديمياً لأحداث المعارك العسكرية التي وقعت في ذلك العام، أما في الجانب العربي، فإن كل ما صدر في هذا الموضوع لا يتجاوز المذكرات الشخصية المجتزأة والمستمدة من الذاكرة أو من وثائق شخصية غير ذات قيمة أكاديمية. وما ينطبق على هذا العام، وهذا الحدث الكبير، ينطبق بنسبة عالية على كل الأعوام وكل الأحداث، إلى درجة تسمح لنا بطرح السؤال

القلق حول جدوى أن يـرتفع عدد الجامعيـين العرب في تخصصـات التاريـخ والعلوم السياسية والاجتماعية، من غير أن يؤدي ذلك إلى سـد هذه الثغـرة الكبيرة في إنكبـاب العـرب على تـدوين ودراسة وتحليـل تاريخهم المعـاصر، وفقاً للمعـايير الأكـاديمية التي يمتلكها الآن جيش جرار من هؤلاء الجامعيين.

غير أن هذه النقـطة لا تستكمل بغـير الإشارة إلى مشكلة أخرى، تتجاوز كسل العرب في دراسة وتدوين تاريخهم المعاصر، أو اكتفاءهم بدراسات تفتقر في الغالب إلى المعايير العلميـة الموثـوقة، إلى أن العـدد القليل من دراسـات الكتاب العـرب لتاريخنـا المعاصر، تلتزم بالمعايير الأكاديمية في الشكل، ولكنها في الجوهر لا تعدو كونها أقرب إلى تقليد الأبحاث الغربية والنقـل الحرفي عنهـا، منها إلى الـدراسات الأصيلة التي تـطوع أدوات البحث الأكـاديمية المتعـارف عليها لنـظرة أصيلة يستخدم فيهـا الباحث العـربي (إضافة إلى الأدوات العلميـة) حساسيتـه الخاصـة في فهم مسالـك ومعارج السيـاقات الخاصة للمجتمع العربي والتـاريخ العـربي، حتى تحولت المصـادر الأجنبية إلى مصـادر وحيدة، يعتمد عليها العرب في فهم أنفسهم.

وسبب هذه المشكلة الأخيرة أن معظم الباحثـين العرب الـذين انكبوا عـلى هذه الـدراسات، قـد تلقوا علومهم العليـا في الخارج أو عـلى مصادر أجنبيـة خالصـة، مما دفعهم للإنبهار والوقوع في أسر نظريات غربية قـد تكون (إذا حسنت النـوايا) وجهـة نظر غربية في أحداث التـاريخ العـربي المعاصر، ولكنهـا ليست بدايـة البحث العلمي ونهايته، ومجال الاجتهاد يبقى مفتوحاً أمام أي وجهة نظر أخـرى، خاصـة إذا توفـرت الموضوعية وكل خصائص البحث العلمي الأكاديمي الجاد.

عند هذه النقطة بالذات، نقف عند إسم صاحب النص الأصلي لهذا الكتاب، وهو الإنجليزي من أصل يوناني، البروفسور فاتكيوتس، الذي قضى قسمـاً من حياتـه في فلسطين موظفاً في السلك الإداري للإنتداب البريطاني، والمعروف بأنه يحمل موقفاً معادياً من تجربة العـرب في التحرر في عقـدي الخمسينات والستينـات. فقد بهـر هذا الأستاذ بتخصصه في التاريخ العربي المعاصر، عدداً من البحاثة العرب الذين تتلمذوا على يده، فجاءت أبحاثهم عربية اللسان غربيـة الفكر، لا تعـدو كون معـظمها نقـلاً حرفياً لـوجهات نـظر فاتكيـوتس، بعد إسقـاطها عـلى هذا الجـانب أو ذاك من التاريـخ

العربي المعاصر، ومن ذلك على سبيل المثال، وصول أحد الباحثين العرب من تلاميذ فاتكيوتس، إلى اعتبار نظام بورقيبة نظاماً ناصرياً، لا لشيء إلّا لأنه استعار نظرية فاتكيوتس في تعريف خصائص التجربة الناصرية، ووجد أن هذه المعايير تنطبق أيضاً على تجربة بورقيبة.

أقول هذا الكلام لا لأهاجم أبحاث فاتكيوتس، ولا لتغطية التقصير العربي الفاضح في بذل جهود عربية أصيلة، لدراسة التاريخ العربي المعاصر من زاوية عربية خالصة (مع الالتزام طبعاً بشروط البحث العلمي الأكاديمي)، بل لألفت انتباه القارىء إلى تحفظ هام عند قراءته لهذا النوع من الكتب، الذي مهما التزم في الشكل بأدوات البحث الأكاديمي، فإنه يبقى في النهاية (وفي أحسن أحواله) مجرد وجهة نظر من المفيد الإطلاع عليها من غير شك، ولكن من المضر جداً، بل من المصيبة إعتبارها المرجع العلمي الأوثق في موضوعه، والإكتفاء به، وعدم بذل أي جهد آخر في موضوعه ومجاله. كما أن من المؤكد أن عدداً من هذه الكتب، يتلون خلف واجهة الشكل الأكاديمي بألوان عديدة من الأحكام المسبقة، ومن حشر الأحداث العربية حشراً سطحياً في قوالب جاهزة مستمدة من سياق تاريخي خاص مختلف كل الاختلاف، وعاجز عن استيعاب تفاصيل وأعماق وتعقيدات الأحداث العربية التي يتم تحليلها بعد وضعها في تلك القوالب الجاهزة. نقول هذا الكلام ونحن نرى أمامنا كثيراً من المسلمات السابقة في العلوم السياسية والاجتماعية تنهار وتتغير وتتبدل وتنقلب من النقيض إلى النقيض، وتفتح أبوابها لاجتهادات بالغة التناقض والتنافر، ولا تتحول إلى أصنام علمية جامدة إلا عندما يتعلق الأمر بكتابة التاريخ العربي (المعاصر بالذات) بأقلام أجنبية، وحتى بأقلام عربية.

غير أننا بعد كل هذه التحفظات الوقائية التي نضعها أمام القارىء العربي، ننتقل إلى الملمح الإيجابي الأساسي في هذا الكتاب، وهو أنه يحاول إنطلاقاً من التكوين الخاص لكاتبه، ومن المعايير التي ينطلق منها، أن يجتهد في قراءة ما أتيح له من وثائق ومصادر لتكوين صورة لخلفيات التكوين السياسي لجمال عبد الناصر ورفاقه من الضباط الأحرار، بل وأبناء جيلهم الذين ترعرعوا في الثلاثينات واشتد عودهم في الأربعينات واندفعوا إلى ممارسة العمل السياسي في الخمسينات والستينات.

وهنا يصل الكتاب إلى الفصل الأشد أهمية وفائدة للقارىء العربي، وهو الجهد

المكثف الذي يبذله المؤلف في دراسة العلاقة الخاصة بين جمال عبد الناصر ومنظمة مصر الفتاة، وأفكار مؤسسها وزعيمها أحمد حسين.

وبغض النظر عن تقييم فاتكيوتس لملامح هذا الفكر، والكلام عن تأثره بالأفكار الفاشية أو النازية، أو نسبته إلى السطحية أو الإنفعالية العاطفية، وكلها تقييمات مستمدة من معايير أوروبية خالصة لا تلزم القارىء العربي بشيء، فإن المؤلف يضع أمامنا (بالوثائق المتاحة له، أو التي اختارها ربما) تطابقاً فريداً بين ملامح الفكر السياسي والمزاج الوطني لكل من منظمة مصر الفتاة، وتنظيم الضباط الأحرار، وفكر جمال عبد الناصر بشكل أخص، بل إن دراسة فاتكيوتس تذهب إلى حد أن تثبت أن انجازات نظام عبد الناصر وثورة ٢٣ يوليو، كانت في النهاية التطبيق العملي لأفكار وأحلام وطموحات منظمة مصر الفتاة، في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وهذه العلاقة (إذا صحت بالتفاصيل التي يقدمها لنا الكتاب) تعتبر حلقة هامة في فهم محطة أساسية من محطات التاريخ العربي المعاصر، وهي بذلك، ومع الإبقاء على كل التحفظات الواردة في مطلع هذه السطور، تحتفظ لهذا الكتاب بقيمة مؤكدة. أما التحفظات فحري بها أن تتحول إلى حافز يدفع الباحثين العرب إلى مزيد من الجهد في السعي لدراسة كل المنعطفات الهامة في التاريخ العربي المعاصر، خاصة بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية بالمعايير العلمية الأكاديمية المستحدثة في الغرب، ولكن بحساسية عربية ونوايا عربية، وهمّ عربي خالص، فنجد بين أيدينا (على سبيل المثال) التاريخ العربي الأكاديمي لهزيمة ١٩٦٧ (بالتوثيق العسكري والسياسي العلمي الكامل)، ودراسة عن عمق التحولات التي طرأت على التجربة الناصرية بين النكسة ورحيل عبد الناصر، وتوثيقاً أكاديمياً كامل الموضوعية لحقيقة ما قام به أنور السادات من تحويل جذري في مسار السلطة السياسية العليا في مصر، وهي أحداث لم نقرأ فيها حتى الآن سوى مقالات مطولة، أو (في أحسن الأحوال) كتب موسومة بوجهة النظر الشديدة الذاتية (سلباً أو إيجاباً).

هذا كتاب غربي جديد يضاف إلى سلسلة الكتب الصادرة في الغرب عن عبد الناصر، بعضها منصف وموضوعي، وبعضها مفيد، بغض النظر عن الموقف الأساسي

(مثل هذا الكتاب)، وبعضها مغرض وبلا أي قيمة بحثية أكاديمية، ولكنها كلها ثمار جهود حقيقية، لا يمكن مقارعتها إلّا بجهود عربية مماثلة، فلا تبقى (على سبيل المثال) الدراسة الأكاديمية المرجع عن مفكر القومية العربية ساطع الحصري، لعقود ثلاثة بعد صدورها، أطروحة الدكتوراه للباحث الأميركي وليام كليفلاند، علماً بأن هذه الأطروحة ناقشت أحد أخطر المنعطفات الفكرية في حياة العرب المعاصرة، وهو منعطف التحول من الإنتماء العثماني إلى الإنتماء القومي العربي.

الياس سحاب

تمهيد

بقيت مصر ولاية عثمانية فترة طويلة، حتى كانت الحملة الفرنسية عليها في أواخر القرن الثامن عشر مفتتحة عهداً جديداً من الغزو الأوروبي المباشر.. وبوصول محمد علي باشا إلى السلطة ١٨٠٥، وهجومه المعاكس حتى قونية في قلب «الرجل المريض» ١٨٣٩، ازداد شعور أوروبا بضرورة السيطرة المباشرة على مصر «من أجل الأخطار التي تهدد الغرب» على حد تعبير «مترنيخ» مهندس سياسة العصر آنذاك..

وقد فرضت معاهدة لندن (١٨٤٠) على دولة محمد علي الإنكفاء ضمن الشروط المقيِّدة للدور المصري، وصرفت نظره نحو «التحديث» الداخلي مع توسيع أفيائه باتجاه المجال العربي ـ الإفريقي. حتى كانت معركة «التل الكبير» ١٨٨٢ وتصفية الحركة العرابية، لتصبح بريطانيا صاحبة الوجود المباشر على أرض الكنانة، متعايشة مع مظهرية السلطنة العثمانية التي تحولت إلى مسحة شكلية لا تقدم، ولا تؤخر من الواقع في شيء..

وتولت الحرب العالمية الأولى إنهاء الدور العثماني في المنطقة العربية، لتحل نتائج «سايكس بيكو» ١٩١٦ ووعد بلفور ١٩١٧، وبدل أن تنطلق «الفرس الشقراء»[1] التي أطلقت الثورة العربية عام ١٩١٦، معلنة استقلال العرب، كما وعد «الحلفاء»، انطلقت بدلاً منها أيدي المستعمرين، وكانت مصر من نصيب الإنكليز..

وذهبت أحلام العرب بالإستقلال والحرية والإخاء والمساواة التي وُعدوا بها، أدراج الرياح، وأظهرت مراسلات حسين ـ مكماهون ونتائجها أي مصير ينتظر المنطقة العربية.

وتحركت مصر، يقودها سعد زغلول لمعارضة الوجود الإنكليزي المباشر، لكن حركة سياسية يقودها الوفد، استطاعت أن تقلق انكلترا دون أن تفرض عليها الإنكفاء النهائي.. «فطريق الهند» والشرق الأقصى يجب أن تبقى مفتوحة مهما كانت الظروف، لا سيما وأن السلاح المواجه بقي محدوداً ولم يصل حد التحرك الشعبي الواسع.. فعزيز المصري، الذي صرف جل شبابه في تدبير الخطط الآيلة للتخلص من العثمانيين، بقي في هذه الآونة

(١) كلمة السر لانطلاق الثورة العربية عام ١٩١٦.

«الضابط ـ الرمز»، ولكن دون جذور فعلية، قادرة على تحويل توجهاته إلى مستوى الحركة العرابية قبل نصف قرن. . فالثورة لا تصنع من رأس قائد يبقى تأثيره «فوقياً» مهما صفَت النوايا وصدق التزام الفرد بقضيته.

غير أن تلاطم الوضع الدولي، وبروز ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية في أوائل الثلاثينات، أعاد خلط الأوراق على المسرح الدولي، من جديد. . فتعزز اعتبار مصر مفتاحاً لإفريقية وآسيا، في وقت كان فيه التململ الشعبي داخل أرض النيل قد ارتفع بوتائر عالية صدامية ضد الملك والانكليز. وزاد أوار التوتر بعدما رفضت الحكومات المتعاقبة الموالية للقصر إعادة العمل بدستور ١٩٢٣، الذي كان قد ألغاه إسماعيل صدقي عام ١٩٢٨. .

أما المنظمات السياسية التي عايشت هذه الفترة، فقد استقطبت فئات شعبية واسعة، بنسب مختلفة غير مستقرة، تتبدل صعوداً وهبوطاً بقدر قرب هذا التنظيم أو ذاك، من آمال الفئات الشعبية ومصالحها، وفي وقت أفسح فيه «مؤتمر مونتريال» بإلغاء الإمتيازات الأجنبية في مصر عام ١٩٣٨، المجال لدخول مجموعة من الشباب إلى الكلية الحربية، بعيداً عن «الإنتقائية» المعتادة و«التصفية» الدقيقة التي كانت متبعة في مثل هذه الحالة. . فكان عبد الناصر وأنور السادات، وعبد الحكيم عامر ومجموعة لا بأس بها من أمثالهم ضمن الداخلين. .

هكذا، قُدِّر لعناصر متحدرة من الفئات الوسطى والشعبية أن «تطعّم» جو الكلية الحربية بدم جديد، ترافق إنسيابه مع ظروف داخلية معقدة محتقنة مؤزّمة، ووضع دولي أنهت الحرب العالمية الثانية فيه «سراب» الدور الألماني، وقذفت بالدور الأميركي إلى الواجهة والفرنسي ـ الإنكليزي خلفه. . مخلفاً عقدة استيطانية ثابتة على أرض فلسطين. .

إن هزيمة العرب على أرض فلسطين. . وما نال مصر منها. والجو الذي أشاعه النظام الملكي فيها، مترافقاً مع «الأسلحة الفاسدة» التي حاصرت عبد الناصر في «الفالوجة» كما حاصرت أقرانه وزملاءه في أماكن أخرى، كلها صوبت إبرة البوصلة باتجاه الداخل نحو القاهرة العاصمة التي ازداد شعورها بالغبن وسوء العاقبة، مما بُذل هدراً من دماء الناس وأرزاقهم. .

إذن، ما سماه البعض «انقلاباً» على النظام الملكي في ٢٣ يوليو ١٩٥٢، ناظرين إلى «الشكل» الذي تم به تسلم السلطة على يد حركة «الضباط الأحرار» لم يكن إلاّ ثورة، مبضع الجراح فيها هو الجيش. . فحركة التغيير التي ترافقت مع عزل الملك وإنهاء نظامه، بكل مؤسساته، كانت ترمز، حقيقة إلى جو عنف جماعي قوامه حالة التأزم والإحتقان التي طبعت

مختلف الفئات الشعبية المصرية بطابعها، يحدوها، ويغذيها، شعارات وبرامج التيارات التي كانت تنادي بضرورة الإصلاح، أو التغيير. إذ مهما كان أسلوب «الانقلاب» ناجحاً ومفاجئاً وفعالاً، فإن قابلية الاستمرار للنظام الجديد، تعتمد على مدى التمثيل الذي يشكله لمصالح المواطنين الملتفّين حوله، فالانقلاب ـ الثورة، بدا أنه تضمّن شيئاً فشيئاً، أكثر من مجرد مهارات وطموحات أولئك المسؤولين عن تنفيذ خطة التبديل والتغيير، إذ حقق العديد من آمال وطموحات الفئات الشعبية الملتفة حوله.. وهنا يبرز دور القائد ـ التنظيم، والقائد الفرد.. .

وإذا ما تجاوزنا مسألة التنظيم باعتباره كان «حركة» تسعى للتنظيم، فإن دور القائد الفرد هنا، لا يمكن التغاضي عنه، أو تهميش فعاليته..

عبد الناصر كان رمزاً لجيل بأكمله داخل مصر، هذا صحيح.. بل كان رمزاً لمستقبل شرائح اجتماعية واسعة على مدى الوطن العربي الكبير، رأت فيه منفذاً للخلاص مما تعانيه.. لكن عبد الناصر، الذي أصبح رمز حركته، ثم مصر، ثم العرب، لا يمكن اعتباره «مجرد» طامح للسلطة همه تصفية من حوله للتربّع منفرداً.. إنه ـ إنصافاً ـ غير هذا.

ففي «العالم الثالث» اصطلاحاً، على وجه العموم، تكون شخصية القائد أكثر أهمية، أثناء حركة التغيير الإجتماعي، كلما كان أنصار الحركة مختلفين اجتماعياً، وكلما كانت ايديولوجية الحركة أقل تماسكاً، وأكثر شفافية في التحديد، مع محدودية التنظيم المحرّك.. وهذه ظروف لم يشذّ وضع مصر عنها قبيل وأثناء انتصار ثورة يوليو. فمنطقي أن لا يكون القائد المبدع رائداً ورمزاً في صحراء قاحلة معزولة عن المريدين ودعاة التغيير المندمجين مع توجهاته، إلّا أن شروط دوره، في صناعة التاريخ، تتطلب تميزه بمزايا لا يشترك فيها جميع الراغبين مثله.. «فالعباقرة لا يولدون بالدزينات».

وعبد الناصر ـ كما أظهر الواقع فيما بعد ـ كان على صلة واعية ناقدة للماضي، متمتعاً بإحساس دقيق لحاضره، قادراً على الاختيار والاستعداد لتنفيذ الخيارات المتاحة، بحدود الإمكانيات البعيدة عن المغامرة، في وقت كان يظهر فيه أنه لا يمكنه إخفاء نفسه من حكم التاريخ الذي يعايش مساره..

عبد الناصر، كان يرى «تركة التاريخ» عبئاً على عاتقه، لا يمكنه المضي بدوره فيها إلّا إذا حوّل العبء إلى حافز.

سار عبد الناصر، تحفّه الضرورة، مبتعداً عن الحتمية والجبرية المطلقة، يغذّ السير متلمساً طريقه في وقت أصبحت فيه مصر ـ بفضله ـ همّ العالم، وأصبح العالم همّها..

فمصر الولاية العثمانية، مصر محمد علي المحاصرة. مصر المستعمرة الإنكليزية. هي الآن مصر الناصرية التي ترسي إنجازاتها الإشتراكية في الداخل، على طريقتها، وهي التي تحمل «هم فلسطين» في القلب.. وتقود أكثر العالم العربي منادية «إرفع رأسك يا أخي»، وتشارك في قيادة «العالم الثالث» مساندة نداء سوكارنو في مؤتمر «باندونغ»: عش ودع غيرك يعيش..

منطقي أن لا يقع المراقب في مطب المديح الكامل للثورة، أو هجائها الكامل.. بل النظر إليها وفق المنهج القائل بأن التأريخ هو «السعي لإدراك الماضي البشري وإحيائه».. وهو ما يرينا أن الحقبة الفاصلة بين هزيمة ١٩٦٧ وما آلت إليه المقاومة الفلسطينية في الأردن قد طالت عبد الناصر في جسده، في قلبه.. لكنها لم تطل جُلّ ما استطاع إنجازه في عقدين من الزمن.

كان المسرح العربي يبحث عن بطل، كما ذكرت «عودة الروح» لتوفيق الحكيم، وجاء عبد الناصر فاعتلى المسرح و«ملأ الدنيا وشغل الناس».. وكذّب قولة «اللنبي» في طولكرم عن نهاية الحروب الصليبية، ورد على «غورو» المتشفّي بصلاح الدين على قبره في دمشق..

وها هو المسرح العربي يخلو باحثاً عن بطل.. ومن جديد!

«ومن القبور الصامتات»
«للمنقذ المجهول ترتفع الصلاة».

ناصيف ياسين

سجل وقائع تاريخية

١٩١٨ ولد جمال عبد الناصر حسين في ١٥ يناير، وفي نفس العام ولد بعض الضباط الأحرار، زكريا محيى الدين، أنور السادات، جمال سالم، حسين الشافعي.

١٩١٩ إنتفاضة شعبية تطالب بالإستقلال التام، والدستور، بقيادة سعد زغلول زعيم الوفد المصري.
ولد عبد الحكيم عامر عضو مجلس قيادة الثورة.

١٩٢٢ تصريح بريطاني بالإعتراف بإستقلال مصر في إطار علاقة خاصة مع بريطانيا وفقاً لتحفظات أربعة.

إنشقاق في الوفد وتشكيل حزب الأحرار الدستوريين.

١٩٢٣ إعلان السلطان فؤاد ملكاً (فؤاد الأول)، إعلان الدستور.

١٩٢٤ إنتخاب أول برلمان وتشكيل حكومة برئاسة سعد زغلول، إغتيال سير لي ستاك، سردار الجيش المصري بأيدي مجاهدين مصريين.

١٩٢٧ وفاة سعد زغلول وتولي مصطفى النحاس زعامة الوفد، وتأسيس جماعة الإخوان المسلمين.

١٩٢٨ إسماعيل صدقي يلغي دستور ١٩٢٣، ويعلن دستوراً جديداً، يتيح له سلطة أوسع، وقهراً اقتصادياً، وفرض الضرائب الجمركية.

١٩٣٣ إقالة حكومة صدقي، تأسيس مصر الفتاة بزعامة أحمد حسين وفتحي رضوان.

١٩٣٥ مظاهرات عارمة للمطالبة بدستور ١٩٢٣، ورفض الحكومات الموالية للقصر.

١٩٣٦ تعيين علي ماهر، السياسي الداهية المقرب من القصر رئيساً للوزراء، وفاة الملك فؤاد، وإختيار مجلس وصاية على فاروق الملك الجديد حتى بلوغه سن الرشد، مفاوضات مصرية بريطانية ناجحة لصياغة المعاهدة.
عودة الوفد الى الحكم، تخرج عبد الناصر من المدرسة الثانوية.

١٩٣٧ مؤتمر مونتريال يلغي الإمتيازات الأجنبية في مصر، دخول عبد الناصر الكلية الحربية، وعبد الحكيم عامر، عبد اللطيف البغدادي، زكريا محيى الدين، أنور السادات، جمال سالم، صلاح سالم، حسين الشافعي.

اجتماع الدول العربية في بلودان بسوريا لمناقشة القضية الفلسطينية.

١٩٣٨ تخرج الضباط الأحرار من الكلية الحربية، تحول جماعة مصر الفتاة إلى حزب سياسي، تعيين الفريق عزيز المصري مفتشاً عاماً على الجيش المصري، تشكيل الحزب السعدي من المنشقين على الوفد: أحمد ماهر، ومحمود فهمي النقراشي.

١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ علي ماهر يترأس وزارة وطنية معادية للإنجليز، حزب مصر الفتاة يتحول إلى حزب إسلامي وطني، أزمة في العلاقات المصرية البريطانية، وإسقاط حكومة علي ماهر.

١٩٤٠ ـ ١٩٤٢ القصر يعين الحكومات دون التشاور مع زعماء الأحزاب أو المندوب السامي البريطاني، وتفاقم الأزمة في العلاقات المصرية البريطانية حول موقف مصر من الحرب، ووصلت الأزمة ذروتها في إنذار اللورد لامبسون الى الملك فاروق في فبراير ١٩٤٢ (حادث ٤ فبراير في قصر عابدين) مصطفى النحاس يشكل الوزارة الوفدية وفقاً للإنذار البريطاني، الكشف عن قضايا تجسس في صيف ١٩٤٢، وإعتقال أنور السادات مع عملاء ألمان.

اعتقال علي ماهر وعزيز المصري.

١٩٤٤ ـ ١٩٤٥ إزاحة الوفد والإطاحة بحكومته، وتشكيل حكومة بزعامة أحمد ماهر زعيم الحزب السعدي، وإعلانه الحرب على المحور، وإغتيال أحمد ماهر.

١٩٤٦ إغتيال أمين عثمان، تصاعد نشاط الإخوان المسلمين، مظاهرات طلّابية وعمالية، بروز جماعات يسارية جديدة، مفاوضات صدقي بيفين حول العلاقات المصرية البريطانية، حكومة صدقي تشن حملة ضد الشيوعية.

١٩٤٧ قرار تقسيم فلسطين، الإنسحاب البريطاني من مصر الى منطقة قناة السويس، مصر تطرح مشكلة علاقاتها مع بريطانيا أمام الأمم المتحدة، وقوع حوادث تفجير في الأماكن العامة.

١٩٤٨ اشتراك متطوعي الإخوان المسلمين بمن فيهم ضباط الجيش في عمليات فدائية ضد اليهود في فلسطين، إعلان قيام الكيان الصهيوني (دولة إسرائيل) ووقف الحرب

وعمليات القتال على أرض فلسطين. الإخوان المسلمون يغتالون رئيس الوزراء محمود فهمي النقراشي، وحكمدار بوليس القاهرة.

١٩٤٩ تشكيل الهيئة التأسيسية للضباط الأحرار، مصر توقع على الهدنة مع إسرائيل في رودس، إغتيال حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين، إضرابات خطيرة في مصر، منها إضراب قوات البوليس.

١٩٥٠ حزب الوفد يعود للحكم، توزيع منشورات الضباط الأحرار، تشكيل اللجنة التنفيذية للضباط الأحرار.

١٩٥١ فشل المفاوضات المصرية البريطانية، حكومة الوفد تلغي معاهدة ١٩٣٦ مع بريطانيا، عمليات فدائية ضد المعسكرات البريطانية في منطقة قناة السويس، الضباط الأحرار يتحدون الملك فاروق ويسقطون قائمته في إنتخابات نادي الضباط، حكومة الوفد تمالىء الملك وتلوح بإنتهاج موقف محايد.

١٩٥٢ صدامات مسلحة بين القوات البريطانية والبوليس المصري في الإسماعيلية، مظاهرات واسعة يوم السبت الأسود ٢٦ يناير، وحريق القاهرة. تردي الوضع السياسي، تتابع حكومات عاجزة عن علاج الأزمة، ثورة ٢٣ يوليو، تشكيل مجلس قيادة الثورة، خلع الملك فاروق ونفيه الى الخارج، تعيين علي ماهر رئيس وزراء، وخلافه مع مجلس قيادة الثورة على قانون الإصلاح الزراعي، وتعيين الفريق محمد نجيب رئيساً لوزارة مدنية، إصدار قانون الإصلاح الزراعي، إضراب في مصنع نسيج كفر الدوار.

١٩٥٣ تشكيل هيئة التحرير وتولي عبد الناصر موقع السكرتير العام لها، وتشكيل لجنة لإعداد مشروع دستور جديد، حركة تطهير في صفوف ضباط الجيش، الثورة تطالب الأحزاب بتطهير صفوفها، حل الأحزاب، تشكيل محكمة الثورة، إلغاء الحكم الملكي وإعلان الحكم الجمهوري وإختيار محمد نجيب أول رئيس لمصر، بدء إرسال إذاعة صوت العرب، تشكيل المجلس الدائم للإنتاج القومي، وإعلان الدستور المؤقت، توقيع الإتفاقية المصرية البريطانية بشأن السودان.

١٩٥٤ الصراع على السلطة بين عبد الناصر ومحمد نجيب واتساع القلق والإضطراب السياسي في البلاد، ونشوب شبه عصيان عسكري بين ضباط سلاح الفرسان، توقيع إتفاقية الجلاء مع بريطانيا، محاولة إغتيال عبد الناصر بأيدي جماعة الإخوان المسلمين أثناء الإحتفال الجماهيري في الإسكندرية (حادث المنشية)، حظر نشاط

الإخوان المسلمين، عزل محمد نجيب عن الحكم، تعيين عبد النـاصر رئيس وزراء حكومة مختلطة مدنية ـ عسكرية.

١٩٥٥ تـوقيع إتفـاق حلف بغداد، مصر تـدرب الفـدائيـين الفلسـطينيـين لـلإغـارة عـلى إسرائيـل، وإسرائيـل تشن غـارة إنتقـاميـة عـلى غـزة، عبـد النـاصر يحضر مؤتمـر باندونج، ويعلن توقيع صفقة الأسلحة السوفياتية.

١٩٥٦ جلاء آخر جندي بريطاني عن مصر، عبد النـاصر يحلّ مجلس قيـادة الثورة، ويؤمم قناة السويس. إعلان دستور جديد، العدوان الإسرائيلي عـلى سيناء وإنـزال قوات بـريطانيـة وفرنسيـة في بور سعيـد، نشوب معـارك السويس، عبـد الناصر يصـادر الأرصـدة البريـطانية والفـرنسية في مصر، إستقـلال السودان، الملك حسـين يطرد الجنـرال السير جلوب من قيـادة الجيش الأردني ١٩٥٧، تـزايـد تـأميم الممتلكـات الأجنبية في مصر، توسـع نشاط القـطاع العام، إنشـاء المؤسسة الإقتصـادية، بـدء سياسة التخطيط الإقتصادي، إتسـاع النشاط المصري في الشؤون العـربية، طـرح مبادىء سياسة ايزنهاور، استمرار التنافس المصري العراقي، تشكيل تنظيم الإتحاد القومي في مصر كبديل لهيئة التحرير، إنتخابات مجلس الأمـة، جلاء إسرائيـل عن غزة.

١٩٥٨ الوحدة المصريـة السوريـة، إعلان الجمهـورية العـربية المتحـدة، إلغاء (الـدستور المصري ١٩٥٦)، إستبداله بدستور مؤقت للجمهورية العربية المتحـدة، مفاوضـات تمهيدية مع الإتحاد السوفياتي لتمويل السدّ العالي، نشوب الحرب الأهلية في لبنان.

١٩٥٩ خـلافات بـين عبد النـاصر وعبد الكـريم قاسم رئيس العـراق، وصراع مماثـل مع خروشوف الرئيس السوفياتي، بدء حملة ضارية ضد الشيوعيين المصريين، إنتفـاضة الشواف في الموصل، مزاعم حول تمويل مصر لها عن طريق سوريا.

١٩٦٠ الخطوة الثانية لترتيبات القرض السـوفياتي لبنـاء السدّ العـالي، بدء الخـطة الخمسية الأولى، التحرك المصري النشيط في إفريقيا، «سياسة عبد الناصر الإفريقيـة» تجميد العلاقات المصرية البلجيكية، وتأميم الودائع البلجيكية في مصر.

١٩٦١ إنفصال سوريا، وإنقلاب عسكري بقيادة ضبـاط سوريـين، فشل دولـة الوحـدة، تطبيق القرارات الإشتراكية في مصر، شائعات حول مرض عبـد الناصر، وخـلاف بينه وبين عبد الحكيم عامر.

١٩٦٢ مؤتمر القوى الشعبية في مصر كجزء من عملية اعادة التنظيم وتطبيق الإشتراكية، وإعلان الميثاق الوطني، بدء سباق صناعة الصواريخ مع إسرائيل، عرض عسكري للصواريخ المحلية الصنع، والصواريخ المصنعة بالتعاون مع العلماء والمهندسين الألمان، ثورة عبد الله السلال في اليمن والإطاحة بالإمام، مصر تعلن تأييدها للثوار والجمهورية اليمنية، استقلال الجزائر.

١٩٦٣ إتساع نطاق المشاركة العسكرية المصرية إلى جانب الثوار في اليمن ضد القوات الملكية. المحادثات الثلاثية حول الوحدة بين مصر، سوريا، العراق.

١٩٦٤ إعادة بناء وتنظيم الجيش المصري، وتزايد الدعم العسكري السوفياتي، زيارة خروشوف لمصر، النزاع مع الولايات المتحدة الأمريكية، إعلان دستور مؤقت وتشكيل حكومة جديدة، تعيين عبد الحكيم عامر نائباً أول لرئيس الجمهورية، ونواب للرئيس: زكريا محيي الدين، حسين الشافعي، حسن إبراهيم، وتعيين علي صبري رئيساً للوزراء، تنظيم الإتحاد الإشتراكي العربي بإعتباره الحزب الوحيد، مؤتمر قمة القاهرة لمواجهة خطة إسرائيل لتقسيم مياه نهر الأردن، تشكيل منظمة التحرير الفلسطينية بقيادة الشقيري، توقيع الهدنة في اليمن.

١٩٦٥ إعادة إنتخاب عبد الناصر لفترة رئاسية ثانية مدتها ست سنوات، تعيين زكريا محيى الدين رئيساً للوزراء، مصاعب إقتصادية تواجه الحكومة، محاكمة مصطفى أمين رئيس تحرير ومؤسس صحيفة الأخبار بتهمة الجاسوسية لصالح أمريكا، عبد الناصر يلتقي الملك فيصل عاهل السعودية في جدة، أزمة سياسية بين مصر وألمانيا الغربية بسبب علاقاتها مع إسرائيل، شائعات حول إصابة عبد الناصر بأزمة قلبية.

١٩٦٦ تصاعد العداء للسياسة الأمريكية، أمريكا توقف شحنات القمح الى مصر، والإتحاد السوفياتي يعوض مصر بشحنات بديلة، الإعلان عن مؤامرة للإخوان المسلمين ضد النظام، إعتقال أكثر من ٢٢٠ من أعضاء التنظيم.

١٩٦٧ أزمة الشرق الأوسط تقود الى نشوب حرب الأيّام الستة، القوات الإسرائيلية تغزو سيناء كلها، والضفة الغربية، ومرتفعات الجولان، إستقالة عبد الناصر وعودته تحت ضغط المظاهرات الجماهيرية (يومي ٩ و ١٠ يونيو)، إنتحار المشير عبد الحكيم عامر، مؤتمر قمة الخرطوم، إنسحاب القوات المصرية من اليمن، السوفيات يعيدون تسليح الجيش المصري، تجدد المعارك على جبهة القناة.

١٩٦٨ محكمة عسكرية لكبار ضباط الطيران، مظاهرات العمّال والطلّاب في القاهرة، الإسكندرية، عبد الناصر يختار أعضاء الحكومة، ويعلن بيان ٣٠ للإصلاح السياسي، تزايد المظاهرات في الإسكندرية، القاهرة وباقي إكتشاف شبكة تجسس إسرائيلية، تزايد القصف الإسرائيلي على خط عبد الناصر يتلقى علاجاً طبيعياً في الإتحاد السوفياتي.

١٩٦٩ حرب الإستنزاف في قناة السويس، الإطاحة بحكم السنوسي في ليبيا وقيـ الفاتح من سبتمبر بقيادة العقيد معمر القذافي، عبد الناصر يعاني من أزمـ خطيرة، قمة الرباط، الإتحاد المصري ـ السوداني ـ الليبي.

١٩٧٠ تغلغل الغارات الإسرائيلية في عمق مصر، عبد الناصر يطلب نظم صـ الدفاع الجوي السوفياتي للدفاع عن أجواء مصر، ويقبل خطة روجرز إطلاق النار، إقامة حائط الصواريخ على ضفة قناة السويس، الصد الفلسطينيين والجيش الأردني في عمان، عبد الناصر يعقد مؤتمر قمة طارئة في لتسوية الأزمة، وفاة عبد الناصر إثر أزمة قلبية.

مقدمة المؤلف

أي محاولة لرسم صورة سياسية لجمال عبد الناصر، ستثير قدراً هائلاً من الجدل والخلاف، ففي أية حال، سيكون صعباً إعادة كتابة سيرته دون الوقوع في خطأ تشويه صورته، والتي يعتبرها البعض محاولة بالغة الجرأة، بينما يعتبرها آخرون سيرة بطل عالمي، ويلجأ آخرون، في محاولة نادرة لتحقيق توازن بين تلك الرؤى المتناقضة. ومن المؤكد أن هناك قدراً غير محدود من التأويلات والتآريخ العديدة لسيرة عبد الناصر بقدر الذين يكتبون أو المستعدين للكتابة عنه.

وهذا الكتاب ليس سيرة حياة عبد الناصر بالمعنى التقليدي، وليس سيرة سيكولوجية (نفسية) بمعنى ربط كلماته وأفعاله بتحليل مكوناته النفسية، وليس دراسة تاريخية مفصلة للنظام الناصري، فهذه الدراسات متوفرة، ويمكن إعتباره تفسيراً لحياة عبد الناصر بوصفه حاكماً لمصر في فترة تاريخية خاصة وحرجة كنقطة تحول في تاريخ المنطقة، وفوق ذلك، يعتبر الكتاب عبد الناصر ممثلاً لجيل من المصريين، وصل كثير منهم على جناحه إلى السلطة، وربما خدموا مبادئه، بقدر أقل أو أكثر، وربما تناسوا لاحقاً، ولهذا المدى، ليس الكتاب فقط محاولة لرسم صورة سياسية لعبد الناصر، بل لجيل كامل من المصريين.

ولهذا السبب، أوليت إهتماماً خاصاً للقوى الراديكالية (الثورية) الجديدة التي ظهرت في مصر إبان حقبة الثلاثينات مثل جماعة مصر الفتاة، جماعة الإخوان المسلمين، جناح الطليعة الوفدية في حزب الوفد، وجماعات شباب الحزب الوطني الميالة للعنف، والجماعات الماركسية والمنظمات الشيوعية العديدة، والجماعات الإرهابية الصغيرة المماثلة للمحور من ضباط الطيران، ومعظم جيل عبد الناصر من ضباط الجيش، تلك الجماعة التي شكلت عصب تنظيم الضباط الأحرار أعوام ٤٩ ـ ١٩٥٢، سواء أكانوا أعضاء متعاونين أو متعاطفين مع واحد أو أكثر من تلك الجماعات الراديكالية، فهذه الجماعات قدمت للضباط الأحرار بعض أفكارهم السياسية الأولية، وأتاحت لهم بعض الخبرات، وبوجه عام ساعدت في تكوينهم السياسي، وعمقت لديهم الإغتراب عن حكامهم، وعن ملكهم، وسياسي الأحزاب القائمة.

مع نهاية الحرب العالمية الثانية كان جيل عبد الناصر من صغار الضباط قد بدأ الصدام مع جيل كبار الضباط المرتبطين غالباً، أو المعروفين بولائهم للنظام القائم، فلقد جاء معظم هؤلاء الضباط الشبان من صفوف الطبقات الشعبية أو البرجوازية الصغيرة، وليس من صفوف كبار ملاك الأراضي أو أصول برجوازية كبيرة، ولعبت نشأتهم الإجتماعية غالباً دوراً في تعميق رؤاهم الجذرية خلال إغترابهم وبحثهم عن أفق لإزالة الظلم الإجتماعي، الذي اعتقدوا أن الذين يملكون كل شيء في مصر يسومونه لأولئك الذين لا يملكون شيئاً.

في الباب الأول، سأتناول الظروف والأجواء التي تشكل في إطارها الوعي السياسي لجيل عبد الناصر من ضباط الجيش، أما مسيرة الضباط الأحرار نحو السلطة وظهور عبد الناصر كحاكم فرد، فسيتم تناولها في الباب الثاني. وهذان البابان يجسدان مشهد ظهور الحكم العسكري ويحددان سماته ومساره بشكل عام، بالتركيز على عبد الناصر بوجه خاص، ويلقيان الضوء على إنهيار وتحلل النظام السياسي الذي أطاح به الضباط الأحرار عام١٩٥٢.

أنا لست معنياً بإستخلاص الدروس والعبر الأخلاقية من حياة الشخصية التي أدرسها أو من دورها السياسي، لكن ما يهمني هو إنعكاس شخصية مثل عبد الناصر وتأثيرها على مجريات الأحداث، وتأثيرها على بلاده، ضمن باقي العوامل الإقتصادية الإجتماعية وباقي القوى والمؤثرات التاريخية، فلقد كان شخصه وشخصيته محوراً أساسياً لمصر - وفعلاً كانت محط إهتمام مجمل العالم - وهكذا كانت مصر مرادفة لعبد الناصر في الفترة من ١٩٥٤ حتى ١٩٧٠، وأيضاً فلقد تحددت الإتجاهات العربية والسياسات الإقليمية للوطن العربي إبان نفس الفترة بالناصرية.

لهذا سيكون التركيز على أهمية دراسة عبد الناصر كظاهرة مصرية، طالما أن ما نحاول فهمه هو نوعية الخبرة السياسية التي أرساها لشعبه، وبهذا الخصوص، كانت أعوام تشكيل وتكوين وعيه السياسي سنوات حرجة وحاسمة، خصوصاً الفترة من ١٩٣٣ إلى ١٩٣٧، وفترة حياته العسكرية من ١٩٣٧ إلى ١٩٥٢، إبان تلك الأعوام يمكننا التعامل مع ملامح شخصيته مثل اليأس من إصلاح الوضع القائم، النقمة والسخط، أفكار رومانسية عن العدل الإجتماعي، الشغف والتعلق بأفكار البطولة، الحذر والدهاء، العزلة الشخصية، المهالأة، الطموح للتحديث، والتمسك الشخصي بالحفاظ على التقاليد، من جانب، ومن جانب آخر الإزدواجية واليأس، ويمكننا ملاحظة صفات مثل الحرص على التطهر والنقاء مصحوباً بالغلظة وجفاء المشاعر، النشاط العام متناقضاً مع الحياة العائلية الهادئة، التقشف والزهد الرومانسي متعارضاً مع التمسك بإحتكار السلطة، التمسك الشديد بالكرامة الشخصية، والحفاظ على المهابة بينما يحط من شأن الآخرين، الحفاظ على التقاليد الشعبية،

وثقافة الطبقات الدنيا، وفي نفس الوقت تتملكه رغبة عارمة للتحديث.

فيما يتعلق بوجود عبد الناصر في السلطة، لاحظت حقيقة أنه خلافاً لسابقيه سعد زغلول ومصطفى النحاس اللذين كانا زعماء ذوي شعبية كبيرة، أصبح عبد الناصر زعيماً لا يقارن، ويبدو أن الشعب قد إفترض أنه الإستجابة والحل لكل مشاكله، وكانت جماهيره مقتنعة بأنه صانع معجزات وبطل خيالي وأسطوري، لذا فمن الهام معرفة كيف إستجاب عبد الناصر لتملق ونفاق شعبه له، لأنها ستؤثر على أي تقييم لرؤيته لمصر الحديثة، فهمه للحكم، علاقاته مع منافسيه والمقربين منه، إستجابته للتأثير الخارجي، أسلوبه السياسي، تعامله مع الخصوم الحقيقيين أو الوهميين، توجهه لأعضاء أية طبقة إجتماعية كان يكن لها كراهية طيلة صباه وشبابه مثل، كبار البرجوازيين، مثقفي الطبقات الوسطى، البيروقراطيين والمهنيين.

هناك من رأوا في عبد الناصر تعلقاً شديداً بالسلطة والحكم، لكن ينبغي تقييم هذا الرأي في إطار تحليل الموقف والوضع الذي وصل خلاله عبد الناصر إلى السلطة، للإجابة عنه، هل كان عبد الناصر زعيماً عربياً نمطياً، وزعيماً جماهيرياً حديثاً مثل الدوتشي، أم كان سلطاناً وأميراً معبوداً يتمتع بموهبة سياسية خارقة؟[1] هل كان زعيماً للفتوات[2] الأبطال الشعبيين في مصر الإسلامية؟ وهذا التحليل سيشكل إلى حد بعيد القاعدة الايديولوجية الاجتماعية لقيادته وزعامته القومية لأن هذه السلوكيات والقيم والصيغ التي إتصف بها أهالي الأحياء الشعبية المزدحمة والفقيرة قد تغلغلت في خبراته ومخزونه الثقافي، وأيضاً ميراث الحركة الشعبية الإسلامية والوطنية والإشتراكية إبان الثلاثينات، وبوجه خاص، ميراث حركة مصر الفتاة التي إنضم اليها، وتنظيمها شبه العسكري وطموحها لحشد الجماهير.

إذن، لو كان عبد الناصر قد تشبع بهذه التقاليد فهل كان ببساطة، زعيماً للجماهير وقائداً، «وريّساً»، لدولة شمولية؟ أم كان يتمنى، ولديه رؤية لتحقيق هدفه، ولقيادة الجماهير نحوه؟ أم كان فقط يخدرهم ويسلب وعيهم كما زعم توفيق الحكيم؟[3]

هل كان عبد الناصر فتوة، رجل عنف هيأ مناخاً للعنف؟ بالإضافة إلى ذلك، هل

---

(١) بمعنى السلطان الأمير المبجل.

(٢) الفتوة يشير إلى البطل المحلي الشعبي الذي يخافه ويحترمه أبناء الحارة أو الحي لقوته الجسمانية، ودراستي «فساد الفتوة: عامل اليأس في رواية أولاد حارتنا لنجيب محفوظ».

(٣) هذه إحدى أفكار كتاب توفيق الحكيم عودة الوعي بيروت ١٩٧٤، الكتاب الذي أثار جدلاً، وانتقده معظم الكتاب المصريين والعرب، مما دفع الحكيم لنشر طبعة ثانية «وثائق في طريق عودة الوعي بيروت ١٩٧٥».

كان عبد الناصر سياسياً محنكاً توقف عن التدبر في أفضل وسيلة لإستخدام السلطة التي سعى إليها؟ أم كان ببساطة متآمراً، فردياً يميل للعمل السري؟ هل كان تحقيره اللاذع للسياسيين مشتقاً من مكونات شخصيته؟ أم كان نتاجاً لزعامته الكارزمية التي أتاحت له تدمير خصومه؟ هل كان عبد الناصر يشتهي السلطة ويفضلها مطلقة؟ وهل كان هذا إنحرافاً عن المألوف المصري؟

تكمن صعوبة تناول كل هذه القضايا في ندرة المادة التاريخية حول حياة ومسيرة عبد الناصر، ومعظم المتاح منها مستمد من سيرته وبيئته الإجتماعية وأقواله، سلوكه وسياساته عندما كان في السلطة، ورغم إتساع نطاق بيروقراطية التوثيق والسجلات المصرية، إلا أن تسجيل وتوثيق الأحداث التاريخية المعاصرة ليس شائعاً بين المصريين (حتى إن أولئك الذين تستهويهم كتابة التاريخ المعاصر يعتبرونه أمراً غير مأمون العواقب سياسياً)، وخصوصاً الضباط الأحرار، بالكاد توجد مذكرات سياسية أصلية أو أوراق خاصة هامة، فقط تلك الذكريات للمسؤولين السابقين التي تكتب لأغراض غير نزيهة ولتصفية حسابات، وتلك الكتب التي تلائم طلاب المدارس[1].

وكل ما يتمناه المرء هنا هو تقديم صورة سياسية، ولقد حاولت هنا إفتراض الخليط الذي تتشكل منه تلك الصورة.

(1) نماذج من هذه الكتابات، سامر جوهر، الصامتون يتكلمون، القاهرة، ١٩٧٥، حسني كروم، ناصر بين هيكل ومصطفى أمين، القاهرة ١٩٧٥، وثائق حرب أوكتوبر لموسى صبري ١٩٧٤، أحمد حسين، كيف عرفت عبد الناصر وعشت أيام حكمه بيروت ١٩٧٣، كمال الدين حسين، قصة ثوار يوليو، ناصر الدين النشاشيبي، الحبر الأسود. . أسود، باريس ١٩٧٦.

الباب الأول

التكوين السياسي

الفصل الأول

عبد الناصر قبل الثورة

ينتمي الشيخ حسين خليـل سلطان جد جمـال عبد النـاصر الى قبيلة عربيـة إستوطنت صعيد مصر مع الفتح الإسلامي، وفي عام ١٨٨٠ شيد منزلاً من حجرة واحدة بالقـرب من مسجد القرية في بني مرّ، مركز أبنوب، محافظة أسيوط. ولـد أكبر أبنـائه عبـد الناصر، والـد جمال، في هذا المنزل في ١١ يوليو ١٨٨٨، وفي عام ١٩٠٠ إفتتح الشيخ حسين كُتّاب القرية (حيث يتمّ تحفيظ الأطفال القرآن وتعليمهم مبادىء القراءة والكتـابة) فـوق سطح المسجـد، وأصبح إبنه أول تلاميذه، والتحق إبنـه الثاني خليـل بنفس الكتّاب (وهـو الذي تعهـد جمال أثناء فترة دراسته بالقاهرة، وانتخب نائباً عن أبنوب عندما أجرى عبد الناصر أول إنتخـابات لمجلس الأمة عام ٥٧ ـ ١٩٥٨).

تشتهر منطقة أبنوب بإنحدار أبنائها من أصول قبائل عربية، ووجود نسبة عاليـة نسبياً من الأقبـاط بها، وتـرتبط تاريخيـاً بـإنـدلاع هبـات العصيـان، والتمـرد من جـانب العصـاة والمتمردين على الحكم، والمجرمين (المطاريد)، ويبلغ عدد سكان قـرية بني مـر حوالي خمسـة آلاف نسمة، يزرعون ألفي فدّان، منهم ٣,٥٠٠ مسلمـون، ١,٥٠٠ مسيحيون (أقبـاط)، وفيها ثلاثة مساجد وكنيسة واحدة ودير للرهبان، مدرسة إبتدائية وجمعية زراعية، أكبر مـالك أراضي بها لم تزد ملكيته في أي وقت عن مائة فدان.

في عام ١٩٠٣ هاجر أصهار الشيخ حسين الى الإسكندرية ليعملوا بـالتجارة، وأرسـل عبد الناصر في مارس ١٩٠٤ الى مدرسة النجاح الأهلية الإبتدائية، وإنتظم شقيقـه خليل في المدرسة أيضاً، في عام ١٩٠٨ أو ١٩١٠ (ليس واضحاً بدقـة) إلتحق عبد النـاصر للعمل في البريد، في بداية ١٩١٧ تزوج فهمية حماد إبنة تاجر صغـير للفحم بالإسكنـدرية، ولـد جمال أول أبنائهما في ١٥ ينـاير ١٩١٨ في المنـزل رقم ١٨ شارع أنـواتي، في ياكـوس (بالقـرب من الرمل) بالإسكندرية، وعلى التوالي ولد إبناهما عز العرب والليثي.

كـانت الفترة من ١٩٢٥ الى ١٩٣٠ فـترة عدم إستقـرار بالنسبـة لجمال، وفـترة متاعب وقلق، حيث نقل والده للعمل بمكتب بريد الخطاطبة (على حـدود محافـظتي البحيرة والجيـزة) وأرسل جمال الى عمه خليل بالقاهرة. . حيث إلتحق بمدرسة النحاسين الإبتدائيـة لمدة عـام،

وتوفيت أمه في ربيع عام ١٩٢٦، بينما كان عمر جمال ثمانية أعوام، وتزوج والده قبيل عام على وفاتها، وكما هو شائع كان جمال شديد التعلق بأمه، ولذا إستاء من زواج أبيه السريع، وشعر بالإهانة لأنه لم يعرف بوفاة أمه على الفور، وربما يكون الجرح في هذا العمر سطحياً بمعنى يمكن التغلب عليه وتجاوزه بسهولة، ورغم ذلك بقيت حقيقة أن جمال لم يكن قريباً أبداً من والده أو شقيقيه، طيلة حياته، ومعظم معلوماتي من المصادر وثيقة الصلة بجمال عبد الناصر تؤكد انه لم يكن أبداً لصيقاً بوالده[1].

في عام ١٩٢٨، عاد جمال الى الإسكندرية حيث إلتحق بمدرسة العطارين الإبتدائية، وعاش مع جده لأمه محمد حماد، لأن والده وزوجته الجديدة وإبنه منها شوقي ما زالوا يعيشون في الخطاطبة ولم يعد الوالد الى الإسكندرية حتى عام ١٩٣٠، وقضى جمال عامه الدراسي ١٩٢٩ - ١٩٣٠ في مدرسة داخلية بحلوان، ثم عاد الى مدرسة رأس التين[2] في الإسكندرية فيما بعد.

ورغم وجود والده في الإسكندرية عام ١٩٣٠، إلتحق جمال عامه الدراسي أو ربما عامين (١٩٣٠ - ١٩٣٢) في مدرسة الفريدية الثانوية، ورأس التين الثانوية. وفي عام ١٩٣٣، عاد إلى القاهرة ليعيش مع عمه خليل، ويلتحق بمدرسة النهضة في باب الشعرية، والمشهورة بنشاط طلّابها السياسي وتحريضهم الوطني منذ أيّام مصطفى كامل مؤسس الحزب الوطني[3]، كان منزل العم خليل في الخرنفش، خلافاً لحي الدرب الأحمر الذي لا يوجد به إلّا عدد قليل من النازحين من الريف، فقد كان باب الشعرية والخرنفش يعجان بالقادمين من الريف للإقامة والعمل بالقاهرة.

في الفترة من ١٩٢٥ إلى ١٩٣٣ تنقل جمال عبد الناصر ما بين القاهرة والإسكندرية ليعيش مع أقاربه، وتنقل بين المدارس المختلفة، وربما ساهمت هذه التجربة في سنوات عمره الأولى في تشكيل بعض ملامح شخصيته وسلوكياته إبان دراسته الثانوية وإلتحاقه بالكلية الحربية، ومسيرته العسكرية والسياسية، ربما جعلته قلقاً ويشعر بالتحفظ والحيطة والتكتم، ولقد لاحظ عديد من رفاقه سمات التستر والحذر والحيطة الغامضة ومشاعر الترفع والتطهر

---

(١) أكبر أبناء عبد الناصر، خالد، ذكر أن امرأة الأب هي المسؤولة عن النزاع بين جمال ووالده.

(٢) وصف المؤرخ المصري عبد الرحمن الرافعي مدرسة رأس التين، والتي كان طالباً بها «إنها إحدى أهم المدارس في القطر» مذكراتي، القاهرة، ١٩٥٢، ص ٧.

(٣) المصدر السابق ص ١٠ - ١٤.

والتعفف والحفاظ على الكرامة، ولذا استغربوا قدرته في أعوامه الأخيرة على إقامة علاقات شخصية وثيقة وتلاشي مشاعر الجفاء تجاه الآخرين.

ولقد كتب أنور السادات متذكراً أيامهم الأولى في معسكر منقباد عام ١٩٣٨ :

«عانى جمال إحباطات مؤلمة منذ وفاة أمه وهو ما زال صغيراً، فلقد أثرت وفاتها كثيراً في حياته، وهكذا أصبح خجولاً لدرجة مفرطة... وفي نفس الوقت هادىء الخلق ويتمتع بشخصية صعيدية تقليدية، كان لطيفاً وودوداً مليئاً بالعطف... لكنه سرعان ما يصبح أسداً هائجاً في اللحظة التي يشعر أن أيّ شخص يفكر في إهانته أو تجريحه»[1].

ولقد أخبر رئيس الوزراء الأوسترالي سير روبرت منزيس رئيس وزراء بريطانيا إيدن، بعد لقائه بعبد الناصر بخصوص أزمة قناة السويس عام ١٩٥٦، وهو يصف الرئيس المصري كما يلي:

«قيل لي إن عبد الناصر رجل ذو شخصية ساحرة ربما يخدعني للإعتقاد بخلاف ما أعتقد، لكنه ليس كذلك، إنه بشكل ما شخص محبوب، لكنه أبعد من أن يكون مبهراً بل هو أخرق يفتقر للكياسة... أود أن أقول إنه يتمتع بذكاء ملحوظ لكنه يفتقر للخبرة، والمران في كثير من الموضوعات التي تناولها، ولهذا، كان مرتبكاً... ولم يكن منطقه مقنع إلى حد بعيد»[2].

بينما يبدو أن جمال عبد الناصر كان تعيساً في سنوات شبابه، فليس هناك أي دليل على معاناته الحرمان، إبان سنوات دراسته حتى عام ١٩٣٦ عندما إجتاز المرحلة الثانوية (البكالوريا) القسم الأدبي، لم يكن جمال فقيراً محروماً، وتظهره الصور وهو في عامه العاشر أنيقاً، طويلاً، حسن الملبس، والمظهر، وليس هناك دليل على سوء معاملته من جانب عمه خليل، وكان والده يتقاضى مرتباً قدره ١٢ جنيهاً شهرياً كساعي بريد في الإسكندرية عام ١٩٣٣، وبالمثل كان عمه خليل موظفاً في وزارة الأوقاف ويتقاضى راتباً مساوياً في بداية الثلاثينات.

تفترض كتب تاريخ وسيرة عبد الناصر التي وضعها كتاب مصريون وعرب في الخمسينات انه انغمس في النشاط السياسي وشارك في المظاهرات إبان وزارة إسماعيل صدقي

---

(١) مقتبسة من محمد صبيح، أيام وأيام. القاهرة، ١٩٦٦ ص ٢٧٣، نقلاً عن أنور السادات، صفحات مجهولة ص ٢٥.

(٢) أنتوني إيدن، ذكريات، الدائرة المغلقة لندن، ١٩٦٠، ص ٤٧١.

(١٩٣٠ ـ ١٩٣٣) ووزارات القصر (٣٣ ـ ١٩٣٥)[1] وتبعاً لمدرسه للغة العربية أحمد حسين العركي المدرس بالنهضة وقتها، كان جمال منغمساً تماماً في النشاط السياسي عام ١٩٣٤، وهي إشارة محتملة لعضويته في جماعة مصر الفتاة.

في خطابه الشهير في الإسكندرية ٢٦ يوليو ١٩٥٤، للإحتفال بإتفاقية الجلاء مع بريطانيا، قال عبد الناصر:

«عندما بدأت أخاطب هذا الحشد الجماهيري اليوم في ميدان المنشية، عادت ذاكرتي إلى الوراء إلى تلك الأيام عام ١٩٣٠ عندما كنت صبياً في الثانية عشرة أشارك مع أبناء الإسكندرية نضالهم ضد الطغيان والقهر، أهتف معهم للمرة الأولى للحرية ولمصر... وأذكر كيف هربت من رصاص المستعمرين».

لكن هذا الانغماس السياسي لمعظم الشباب المتحمس نادراً ما يبقى له أثر دائم، ففي حد ذاته، لا يشكل أسس التربية السياسية والخبرة.

على أية حال، لقد كان المناخ السياسي السائد في مصر إبان الثلاثينات مناخ هيجان وفوران سياسي، ليس فقط بسبب التوتر والصدام بين الملك والوفد والبريطانيين، لكنه بشكل أوضح بسبب إنتشار وإتساع مدى رفض تبني القيم والأفكار السياسية الأوروبية الغربية، فلقد كان الرفض أو الترويج لها موضوعاً للصراع السياسي حتى بين المؤسسات ورجال الحكم، وأصبح الإخوان المسلمون يجسدون التقاليد الإسلامية المحافظة[2]، بينما تجسد مصر الفتاة التعصب الديني والإشتراكية الوطنية المعادية لكل ما هو أجنبي، والمثالية والنزعة الرومانسية[3].

---

(١) على سبيل المثال، عدد مجلة المصور الإسبوعية التذكاري، أغسطس ١٩٥٧، عبد المنعم شميس الزعيم الثائر، القاهرة، ١٩٥٤، طه عبد الباقي سرور، جمال عبد الناصر رجل غير التاريخ، القاهرة، ١٩٥٧ سنية قراعة، حارس المجد جمال عبد الناصر، القاهرة ١٩٥٩، أنور الجندي، هذا هو جمال، بيروت، ١٩٦٠، سليمان مظهر، عملاق من بني مر، القاهرة، ١٩٦٣، محمد ربيع، شخصية عبد الناصر، القاهرة، ١٩٦٦، وخطابات عبد الناصر الى صديقه علي حسن النشار والذي كان زميل دراسته الثانوية، والتي لم تنشر كاملة، ولكنني نشرت إقتباسات منها، وأنظر أيضاً، عبد القادر النيداري ونجيب الياس برسوم، ثورة الحرية، القاهرة ١٩٦١، ص ٢٨ ـ ٣١، ٤٣ ـ ٤٤.

(٢) حول الإخوان المسلمين عموماً أنظر، ريتشارد ميتشيل، جماعة الإخوان المسلمين، لندن، ١٩٦٩، (ترجم الى العربية، الناشر مدبولي) وأنظر أيضاً ج هيورث دون، الإتجاهات الدينية والسياسية في مصر الحديثة، واشنطن، ١٩٥٩.

(٣) حول مصر الفتاة، أنظر، جيمس ح. مصر الفتاة.

ولقد ذاعت فكرة العداء للأجنبي مثل المسيحيين وتأثير السيطرة الأوروبية التي بثتها جماعة الشباب المسلمون التي تأسست عام ١٩٢٧، وأعاد الكتاب الليبراليون ذوي التعليم الأوروبي مراجعة أفكارهم، وردوا الإعتبار لثقافتهم العربية الإسلامية، كمصدر للقوة والتفوق والتميز، بينما انشغل آخرون بإظهار القوة الحضارية لمصر الفرعونية(١).

كان الطلاب يشكلون الجمهور الرئيسي لهذه الحركات المختلفة وقاعدة المتطوعين للتحرير الوطني، وبحلول عام ١٩٣٥ أصبحوا جماعة سياسية متميزة حاول الملك التقرب منها ثم إنقلب ليسومها ألوان العذاب، وأصبحت الحركة الطلابية تجسد المسرح السياسي المصري بأحزابه السياسية والحركات الجذرية الجديدة وجماعات اليسار.

كان العالم يعاني أزمة كساد إقتصادي، وفي مصر كان النظام الإستبدادي يحاول وسط إنحسار شعبيته معالجة آثارها، وكانت النظم الديمقراطية الكبرى تواجه تحديات خطيرة من جانب الفاشية والنازية في أوروبا، وتدنت مهابتها إلى الحضيض، وتآكلت القوى الإستعمارية البريطانية والفرنسية، وأسهمت كل هذه التطورات في تجذير وتعميق ثورية الحياة السياسية المصرية، ولقد تمكن هؤلاء الفتية الذين أشعلوا حركة المطالبة بالإستقلال، بعد خمسة عشر عاماً من تقويض النظام القائم والإطاحة به.

في هذه الظروف، سادت مشاعر الإحباط وخيبة الأمل بين الشباب الثائر والمتطلع، ودفعته للإنغماس في النشاط السياسي، وتلاشت الوطنية الرومانسية للوفد بتوقيعه معاهدة ١٩٣٦، ولم تحركهم حنكة حكومة صدقي الإقتصادية، فلقد ألهبت مشاعر هؤلاء الشباب الطموح خارج دائرة النخبة السياسية الحاكمة، حمى التطلع للسلطة والمجد، وكما كتب محمد صبيح عام ١٩٧١:

«في الثلاثينات ظهرت عدة حركات للشباب الثائر التي حاولت تغيير مسار الحركة الوطنية، أهمها جماعة مصر الفتاة، وجماعة الإخوان المسلمين»(٢) ولم يختلف جمال عبد الناصر عن أبناء جيله في هذا الأمر، حيث ساد الحنين لإستحضار أبطال النضال المصري: عمر مكرم في مواجهة نابليون(٣)، أحمد عرابي ضد الترك والإنجليز، مصطفى كامل بخطبه

---

(١) على سبيل المثال، توفيق الحكيم في كتاباته، خصوصاً مسرحيته أهل الكهف، القاهرة، ١٩٣٣، وروايته عودة الروح، القاهرة، ١٩٣٣.

(٢) عودة الروح ص ٢٥٢.

(٣) أقام عبد الناصر تمثالاً في الإسكندرية تكريماً لعمر مكرم ودوره في الصمود ومقاومة السيطرة الأوروبية.

الحماسية التي ألهبت حماس تلاميذ المدارس الثانوية، وصيحته النارية «مصر للمصريين»، سعد زغلول «أبو الأمة»، وبطل الجهاد من أجل الإستقلال، ولم يكن جمال عبد الناصر الطالب الوحيد الذي جرح أثناء مظاهرات أعوام ١٩٣٣ و ١٩٣٥، «في مصر حكومة تقوم على الرشاوي والفساد، أين من سيغير كل هذا؟» ولم يكن جمال شيئاً فريداً، بل عاماً وسط جموع أبناء جيله.

معظم طلاب المدارس في تلك الفترة قرأوا أفضل كتب عباس محمود العقاد وتوفيق الحكيم وآخرين في بداية الثلاثينات، وشكلت هذه الأعمال مركباً غريباً من الملاحم الإسلامية البطولية وإحياء الأدب المصري، وكان هناك أيضاً مقالات محمد حسين هيكل عن فولتير، روسو، وباقي الشخصيات البارزة للتنوير الأوروبي والثورة الفرنسية. وتمسك المصلح الإسلامي الشيخ محمد رشيد رضا (توفي عام ١٩٣٥) بالقومية الإسلامية ونشر أعمال عبد الرحمن الكواكبي «طبائع الإستبداد» و «أم القرى». وكانت جريدة الأخبار الوطنية لناشرها أمين الرافعي، ذائعة الإنتشار وبالمثل كان شعر الوطنيين المصريين حافظ إبراهيم وعلي الغاياتي، وأيضاً كان متاحاً ترجمة رواية البؤساء لفيكتور هوجو، وخطب مصطفى كامل. وشنت الصحف الحزبية حملة معادية لبريطانيا، وكان معظمها يتلقى دعماً مالياً من العملاء الفاشيين مثل أوجو دادون، بينما واصلت صحف أخرى عملية إلهاب حماس الشباب، وإثارة التوتر ودق الأسافين بين الملك وقيادات الأحزاب، وأهمها صحف «الصرخة، وادي النيل» لأحمد حسين وفتحي رضوان، والبلاغ لعبد القادر حمزة، وصحيفة الجهاد الوفدية النزعة لصاحبها توفيق دياب.

وذكر أحد مدرسي جمال عبد الناصر وهو السيد نجيب إبراهيم أن جمال قد قرأ سلسلة العبقريات للكاتب عباس محمود العقاد مثل سيرة عمر بن الخطاب، وسيرة سعد زغلول (سعد زغلول سيرة وتحية)، ورواية توفيق الحكيم عودة الروح، والسيرة الذاتية لطه حسين «الأيام»، وقرأ أيضاً سيرة حياة فولتير، روسو، نابليون، الإسكندر، القيصر، جاريبالدي، غاندي، وهانيبال.

وليس هناك شك في تأثر عبد الناصر بكتابات العقاد والحكيم، حيث ركز عباس محمود العقاد على أبطال الحضارة الإسلامية، بينما تبنى الحكيم فكرة خلود وإحياء مصر على يد بطل تاريخي[1]. وعندما تقلد عبد الناصر رئاسة الجمهورية ونشر كتابه «فلسفة الثورة»

---

(١) في مشكلة الحكم، القاهرة، ١٩٣٩، تنبأ الحكيم «بالثورة المباركة» التي تقتلع الفساد، فلقد كان الحكيم ناقداً منسقاً داعية لسقوط النظام البرلماني في مصر في الفترة من ١٩٣٦ الى ١٩٣٩، وإنصافاً لتوفيق الحكيم يجب =

عام ١٩٥٤، أهداه إلى هذين الكاتبين البارزين تقديراً لدورهما وتأثيرهما في تشكيل أفكاره الوطنية، وأهدى توفيق الحكيم وسام الجمهورية، الوسام الثاني في مصر[1]، وعندما إفتتح محمد حسنين هيكل الوثيق الصلة بعبد الناصر، المبنى الفخم الجديد للأهرام، خصص جناحاً في الطابق السادس لتوفيق الحكيم، ويذكر عديد من المرتبطين بعبد الناصر إهتمامه بالصحافة والكتاب، ويذكر انه قد حاول كتابة رواية مستشهداً برواية توفيق الحكيم «عودة الروح» التي نشرت لأول مرة عام ١٩٣٣، وإستخدم اسم بطلها «محسن».

وبالفعل كتب عبد الناصر أجزاء من روايته «في سبيل الحرية» وجعل بطلها «محسن»، ولكنه شخصياً أصبح تجسيداً لبطولة «محسن» في الواقع، وعاش مثله، متمثلاً مشاعره الوطنية[2].

في عام ١٩٤٦ أو ١٩٤٩ تعرف عبد الناصر على أحمد أبو الفتح صاحب صحيفة المصري، وواظب على قراءة الصحف والمجلات مما زاد إهتمامه بالصحافة والأدب.

في مظاهرات ١٩٣٥ قام عبد الناصر بدور نشط، وعندما وقعت صدامات بين المتظاهرين وقوات البوليس جرح، وتعرض لمشاكل مع إدارة المدرسة، وتعرض لخطر الحرمان من دخول إمتحان البكالوريا لأنه لم ينتظم في الدراسة سوى ثلاثة شهور، في عامه الدراسي الأخير، وكان قد كتب رسائل وخطابات إلى زملائه إبان الإجازة الصيفية يحرضهم على

= ملاحظة أنه اعتبر الحل المطروح هو ديكتاتورية عسكرية، لكنه رفضها، وفيما بعد استهوته الحلول النازية والفاشية ثم رفضها بعد ذلك (سلطان الظلام، ١٩٤١) وفي ١٩٣٧، في كتابه «عصفور من الشرق» ناقش الإتجاه الشيوعي ورفضه، وينبغي أن نتذكر أنه في عام ٣٩ - ١٩٤٠ وصل علي ماهر الرجل القوي للحكم (وهو أيضاً أول رئيس وزراء بعد ثورة يوليو ١٩٥٢) وعين الفريق عزيز المصري مفتشاً عاماً للجيش، لذا من المقبول إفتراض أن حكومته جسدت اسلوباً عثمانياً أو تركياً في العمل السياسي، وميولاً أتاتوركية وتعاطفاً مع دول المحور، لكن توفيق الحكيم طرح في «شجرة الحكم» القاهرة، ١٩٣٩ اسلوباً للحكم في الواقع، لايقوم على مبادىء عقلية، لكن على قدرات الفرد وتفرده.. ومعجزة الأنبياء لا تكمن في تعاليمهم بل بشخصياتهم... «فالجديد في النبي هو شخصيته» هل يمكن للمرء القول بأن الحكيم أعطى المصريين عموماً وعبد الناصر بوجه خاص مفهوماً ساذجاً للشرعية؟ فنموذجه للحكم يتكون من زعيم كبير يتسم بعناصر ثلاثة هي الحرية، القوة، العقل، لكن حاكمه النموذجي لا يظهر بوصفه نبياً بل كما ذهب لويس عوض ساحر يمكنه إخراج هذه التفاحات الذهبية الثلاث بطريقة جلا... جلا كالحاوي الذي يلعب بالبيضة والحجر، أنظر كتاب لويس عوض «الحرية ونقد الحرية» القاهرة، ١٩٧١، ص ٥٧، ١٠٩.

(١) أنظر عودة الوعي لتوفيق الحكيم، بيروت، ١٩٧٤.

(٢) نفس المصدر، وأحمد أبو الفتح، قضية عبد الناصر، باريس، ١٩٦٢.

تنظيم المظاهرات بالإشتراك مع المدارس الأخرى، مثل مدرسة فؤاد الشهيرة، وطلاب الجامعة.

مثل طلاب المدارس الثانوية من أبناء الطبقات الفقيرة والبرجوازية الصغيرة وجد عبد الناصر في جرحه أثناء المظاهرات مصدر فخر وكرامة وعلامة على مشاعره الوطنية الحماسية، وأمل في المستقبل تجسيداً لكتابات توفيق الحكيم، والمقالات النارية في جريدة مصر الفتاة «الصرخة» وهجومها الحاد ضد بريطانيا، ودعوتها للعدل الإجتماعي وإستعادة مجد مصر، والآراء الصارمة غير التلفيقية وغير المهادنة والمعادية لبريطانيا والتي يتبناها الحزب الوطني، والأوضاع الإقتصادية والإجتماعية لمصر في الفترة من ١٩٣٣ إلى ١٩٣٧، ولنشاطات القوى الراديكالية الجديدة في مصر: مصر الفتاة، والإخوان المسلمين، والقمصان الزرقاء للوفد، أصبحت هذه المصادر الرئيسية لأفكار عبد الناصر عن نفسه وعن مصر والعالم ككل.

فور تخرجه من المدرسة الثانوية، وقعت المعاهدة المصرية البريطانية في أغسطس ١٩٣٦، وحاول عبد الناصر دخول الكلية الحربية، ورفض طلبه، وبالمثل لم يقبل طلبه للإلتحاق بكلية البوليس، وإلتحق بكلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول (وهي كلية مشهورة في أوساط طلاب الجامعات في الشرق الأوسط والبحر المتوسط) وظل بها حتى مارس ١٩٣٧، عندما إلتحق بالكلية الحربية، وبعد إلتحاقه بخمسة عشر عاماً قاد الثورة ضد الحكم الملكي، وبعد عشرين عاماً أصبح رئيساً للجمهورية، وحاكماً مطلقاً لمصر.

كانت فترة صبا وشباب عبد الناصر فترة إضطراب وهيجان شعبي، خصوصاً أعوام دراسته في المرحلة الثانوية، ولقد سجلت الوثائق البريطانية وقائع تلك الفترة، ولقد أشار «أرثر ينكين» أحد كبار المسؤولين البريطانيين في رسالته إلى السير جون سيمون في عام ١٩٣٤، إلى تشكيل مصر الفتاة، كتب يقول[١]:

«إنها منظمة فاشية معادية للأجانب وهي متطرفة في وطنيتها، وزعمائها المحرضون يبدو أنهم يتمثلون في: عبد الحميد سعيد (نائب) عضو بالبرلمان من الحزب الوطني، ورئيس جمعية الشبان المسلمين، وبعض الشباب الصحفيين في جريدة الصرخة (يقصد أحمد حسين، فتحي رضوان) وتتمتع مصر الفتاة بإقبال الطلاب وتحمسهم لها».

في الصيف التالي كان «رونالد كاميل» يكتب من الرمل بالاسكندرية عن نشاطات

---

(١) مكتب الوثائق العامة FO 371/17977.

المعارضة، ويعرض لصحفها وإتجاهاتها، التي أكدت أن «إنجلترا مسؤولة عن كل مشاكلنا»[1] وكتب السير مايلز لامبسون عن مصر الفتاة مقترحاً:

«يبدو أن الحركة وطنية في نوعيتها إن لم يكن في أصولها» وأهدافها هي:

«المثالية الوطنية للشباب، وإيمان ديني قوي، يجذب بعض طلاب جامعة الأزهر... وتحاول الجماعة إيقاظ إعجاب أعضائها بالروح العسكرية واللياقة البدنية... وسياسياً، تعلن مصر الفتاة... أن الهدف النهائي لمصر هو قيادة العالم الإسلامي وبالتحالف مع القوى العربية، فلم يعد مقنعاً أن الشباب الوطني المتقد الحماس يرضى بحزب الوفد وقيادته الضعيفة، والوفد لم يعد يشبع مشاعرهم كما كان أيام سعد زغلول»[2].

وفي رسالته يقول السير بيرسي لورين «هذه الحركة القائمة على التعصب الإسلامي والعدوان على الأجانب، تقدم عامل إشعال للموقف»[3].

في عام ١٩٣٥، أرسل كيلي من القاهرة: وتشير تقارير كوين بويد «مدير القسم الأوروبي في وزارة الداخلية المصرية» إلى نشاطات جمعية مصر الفتاة وإتساع التحريض السياسي وسط الطلاب، ومنظمات الشباب من كل الأحزاب، ومحاولة العملاء الإيطاليين وضع مصر الفتاة في قائمة الموالين لإيطاليا، والمعادين لبريطانيا من خلال أنيس داود، مثلما فعل صحفيون وأعضاء في باقي الأحزاب بما فيها حزب الوفد، ومعظمهم تلقى أموالاً إيطالية، وتبقى حقيقة أن القصر عين حكومة نسيم باشا الغير محبوب شعبياً، ولقد زاد الإستياء من إتساع نفوذ ناظر الخاصة الملكية الابراشي باشا، والمناخ السياسي العام ملتهب.

في إجتماع لجماعة مصر الفتاة في ١٧ أغسطس ١٩٣٥، حرض زعيمها أحمد حسين على العنف والإغتيال السياسي، خصوصاً ضد البوليس ونسيم باشا نفسه، وأشار إلى أن الجماعة «تبذل جهودها لحث الضباط الشبان في الجيش المصري للإنضمام إلى صفوفها» وعلي ماهر رئيس الديوان الملكي يذكر أنه على علاقة وثيقة بتلك الأنشطة، ولكن كما كتب السير اليكس كوين بويد، فذلك بسبب «رغبة علي ماهر لتوظيف مصر الفتاة وقمصانها الخضر في

---

(١) أغسطس ١٩٣٣، FO 371/217.
(٢) ٧ مايو ١٩٣٤، FO 371/17997.
(٣) نوفمبر ١٩٣٣، FO 371/217.

مواجهة القمصان الزرق للوفد»[1] لكن هذه المرة «فإن مصر الفتاة تنادي بإلغاء الإمتيازات والمحاكم المختلطة وعلي ماهر. . . يحاول كبح جماحهم»[2].

بوجه عام، منذ عام ١٩٣٣ أشارت الرسائل والتقارير الواردة من القاهرة إلى تصاعد نغمة العداء لبريطانيا في الوسط السياسي المصري حتى في الصحف الليبرالية، مثل السياسة والوفد المعتدل، لأنها من جانب تهدف إلى إسقاط النحاس باشا، ومن ناحية أخرى تستخدم كحملة ضد حكومة صدقي، وأيضاً تتسق مع حملة ضد التبشير المسيحي في مصر[3]. ولقد حلل السير اليكس كوين بويد الهياج والتحريض السياسي للطلاب إبان العام القلق المضطرب ١٩٣٥، وكتب عنه تفصيلاً في «مذكرة حول الحركة الطلابية في مصر» مؤرخة في ٢٣ يناير ١٩٣٦[4]:

«الأسباب الأولية لسخطهم يمكن إرجاعها لشهور عديدة مضت ويمكن تلخيصها تحت هذه العناوين:

أ - صعوبة إلتحاق خريجي الجامعات والمدارس الحكومية بوظائف، وإنخفاض المرتبات والأجور.

ب - الصراع بين الأحزاب لكسب الطلاب والإستفادة منهم لأهداف حزبية.

ح - الدعاية الإيطالية.

في الواقع، لقد إنغمست كل الأحزاب وبالمثل القصر، في تنظيم الطلاب وإستقطابهم، كل بحسب أهدافه الخاصة، وأضافت أقلام عباس محمود العقاد ومحمود عزمي[5] المعادية لبريطانيا وقوداً على النار المشتعلة «العقاد بوجه خاص كاتب له شعبية واسعة بين الطلاب وصيحاته اليومية تلقى إعجاباً وترحيباً من الطلاب والشباب المتحمس، الذين بدأوا يشكون في ثقتهم في حزب الوفد ويدركون أنها ثقة لم تكن في موضعها»[6].

---

(١) تقرير بتاريخ ١ يوليو ١٩٣٦ FO 371/121014.

(٢) لامبسون إلى إيدن، مارس ١٩٣٦ FO 371/20101.

(٣) كامبل إلى سيمون ٢٨ يوليو ١٩٣٣ FO 407/217.

(٤) FO 371/20098.

(٥) حول سيرة محمود عزمي المثيرة أنظر تقرير رقم ٢٩ مؤرخ ٧ أغسطس ١٩٣٧، من جيلبرت ماكيرث القنصل البريطاني في دمشق إلى إيدن FO 371/20786، وحول عزمي كداعية للقومية العربية أنظر كتابه «جبهة من الشعب العربي»، القاهرة ١٩٣٨.

(٦) سير اليكس كوين بويد. . مذكرة حول الحركة الطلابية في مصر.

وكان العقاد ليبرالياً أصيلاً، مثقفاً ينتمي بفكره ومشاعره لنوع من الفاشية الوطنية وإنتهى به المطاف ليصبح وفدياً. وجماعة مصر الفتاة شجعت هذا الإتجاه، حتى إن الزعيم الليبرالي محمد محمود باشا إنضم لهم في تحريض الطلاب ضد حكومة الوفد، وركزت الدعاية الإيطالية كل جهودها بين الطلاب، ووزعت عليهم الأموال، والسلاح والمنشورات المعادية لبريطانيا.

في ١٣ نوفمبر ١٩٣٥، تظاهر طلاب جامعة القاهرة وتلاميذ المدارس وساروا من الجيزة إلى القاهرة وهم يهتفون «تسقط إنجلترا» «الموت لصموئيل هور» «يسقط نسيم باشا» «نريد دستور ١٩٢٣» وإصطدموا بالبوليس وسقط ضحايا وجرح كثيرون من الجانبين، في اليوم التالي، وقع الصدام الشهير فوق كوبري عباس عندما أطلق البوليس النار على الطلاب، في ١٩ نوفمبر، توفي الطالب محمود عبد الحكم الجراحي متأثراً بجراحه، وشيع في جنازة شعبية كبطل، وحضرها النحاس باشا وباقي الزعماء السياسيين، وفي مظاهرة كبيرة أمام بيت الأمة مقر حزب الوفد في ٢١ نوفمبر وقع صدام أخطر مع البوليس، وفي ٧ ديسمبر تصادم أكثر من ثمانية الآف طالب مع البوليس على كوبري عباس.

كتب كوين بويد «الطلاب، خصوصاً في القاهرة يظهرون عزيمة قوية، روحاً عدوانية وشعوراً بالمرارة، وأصبح صعباً التعامل معهم... ويظهر طلاب الجامعة عدوانية وشراسة في صدامهم مع البوليس...»[1] كانت مصر الفتاة الأكثر نشاطاً في تلك المظاهرات ويفترض كوين بويد «أن نشاطها وسياستها صلبة ومتشددة في عدائها للإستعمار، عضويتها ليست كبيرة، لكنها تشمل عدداً من الثوار النشيطين جداً في المشاكل الحالية ويواصلون الدعوة للثورة ضد الإنجليز»[2].

في الواقع، لقد إدعت مصر الفتاة فعلياً في عامي ٣٥ ـ ١٩٣٦ «أنها تمثل شباب مصر وجيلاً جديداً... وأنها تعبر عن روح وطموحات كل الأمة المصرية»[3] وفي مهاجمتها للأحزاب السياسية القديمة، والبريطانيين، دعت مصر الفتاة إلى الحفاظ على «كرامتنا»، وتهدف إلى تمصير الصناعات، إلغاء الأمية، رفع مستوى الطبقات العاملة، إعادة تنظيم القرية، تعليم الفلاح، وكل هذا يعني «المجد لمصر»[4].

---

(١) نفس المصدر.
(٢) نفس المصدر.
(٣) نفس المصدر.
(٤) هناك تشابه بين أفكار وبرنامج مصر الفتاة منذ ١٩٣٣ وأفكار عبد الناصر.

بالطبع، لقد إستهوت مبادىء مصر الفتاة الطالب جمال عبد الناصر، بدعوتها لعداء الأجانب، والإصلاح، والإشتراكية المحافظة الإسلامية الوطنية، ومن ثم إنضم للجماعة. وفي خطابه أمام الطلاب المبعوثين للخارج قبل مغادرتهم مصر، تحدث جمال عبد الناصر في يوم ٥ مايو ١٩٧٠، متذكراً:

«في عام ١٩٣٥ أو ١٩٣٦ إنضممت إلى جماعة مصر الفتاة بالصدفة البحتة، كنت أتمشى في حي المنشية بالاسكندرية عندما وجدت صداماً بين البوليس والجمهور، تلقائياً إنضممت للجمهور ضد البوليس وإعتقلت في قسم بوليس المنشية، وسألت أولئك الذين إعتقلوا معي عن سبب الصدام، وأخبروني أن البوليس حاول منع إجتماع لجماعة مصر الفتاة، في اليوم التالي حضر شيخ الحارة وأفرجوا عني بضمانة، وخرجت لأبحث عن جماعة مصر الفتاة، ووجدتها وقابلت أحمد حسين وفتحي رضوان، وإنضممت للجماعة... فيما بعد تعرضنا لإضطهاد السلطات وإعتقلنا وسجنت عدة مرات حتى دخلت الكلية الحربية[1].

تفترض دلائل أخرى أن جمال عبد الناصر إنضم للجماعة عام ١٩٣٤، وأصبح عضواً نشطاً في فرقة القمصان الخضر في باب الشعرية[2].

في فترة العامين ٣٥ ـ ١٩٣٧ بين العام الدراسي الأخير لعبد الناصر في المدرسة الثانوية وإلتحاقه بالكلية الحربية، تسبب توقيع المعاهدة المصرية البريطانية في عدم خداع الشباب من الزعماء الحزبيين خصوصاً قيادات الوفد «الذين عادوا للحكم، وعملوا على تدعيم أنفسهم والإنتقام بالتمتع بالمزايا والسلطة في كل مركز وكل مديرية وكل حي وقرية، بينما الملك الشاب محاط بمستشارين معادين للوفد، ورجال بلاط يقودهم علي ماهر أساساً، وفيما بعد تلاه أحمد حسين رئيساً للديوان الملكي، ولذا إصطدم الملك على الفور بزعماء الأغلبية الوفدية والسفارة البريطانية، وحاول الوفد تقوية وضعه بتدليل قوات الأمن والبوليس

---

(١) مقتبسة من أحمد حسين، كيف عرفت عبد الناصر وعشت أيام حكمه، بيروت، ١٩٧٣، ص ١٠.

(٢) أنظر فتحي رضوان في روز اليوسف ١٨ ـ ٢٥ أغسطس ١٩٧٥.
في خطاب إفتتاح مجلس الأمة ٢٢ يوليو ١٩٥٧ قال عبد الناصر:
أيام أعوام تكويني كنت مهتماً بكل الأحزاب السياسية التي تريد إستعادة حرية الشعب المصري إنضممت إلى مصر الفتاة، لكنني تركتها بعد إكتشافي أنها رغم رسالتها لن تحقق أي شيء محدد.
أنظر الموسوعة الناصرية، بيروت، ١٩٧٣، المجلد الأول ص ١١٢، ١٣٠.

والجيش لكسب ودهم، ومع ذلك كان الملك محبوباً في ذلك الوقت من الجيش، ورغم ذلك كان الموقف في تخليص الجيش من القبضة البريطانية خطيراً»(1).

«إن الحالة الخطيرة وفوضى الجيش، الذي إنفلت فجأة زمامه من أيدي الضباط البريطانيين الذين يتطلع إليهم للإرشاد والتوجيه وأصبحوا الآن مبعدين في الصراع بين الوفد والقصر، جعلت الوضع في غاية الخطورة، لو عجزت البعثة العسكرية البريطانية عن العلاج في الوقت المناسب، فإن الجيوش التي تتفشى فيها السياسة يسهل أن تصبح فريسة للمغامرين العسكريين، وتؤدي غالباً لحدوث كوارث للجميع، بما فيهم السياسيين الذين يميلون لتوظيف الجنود.

السيرة العسكرية

إلتحق جمال عبد الناصر بالكلية الحربية في مارس ١٩٣٧، قبيل شهرين من توقيع إتفاق مونتريو لإلغاء الامتيازات للقوى الأجنبية ورعاياها في مصر، وبالمثل تم توقيع الإتفاقية المصرية البريطانية وهما خطوتان في غاية الأهمية في طريق تحرير مصر من النفوذ والسيطرة الأجنبية، ولكنها شهدت فترة عنف، وفوضى شاملة وصراعاً سياسياً داخلياً.

على سبيل المثال حدد السير لامبسون ثلاثة مخاطر:

١) فوضى تعليمية أدت إلى وجود العديد من الخريجين العاطلين.

٢) ميزانية يائسة.

٣) نقص الخدمات العامة الأساسية.

وعلق مقيّماً الوضع:

«بإسترجاع فترة الحكم البريطاني يتضح أن ما قدمناه كان مجرد مسند لبيت آيل للسقوط وليس أساساً كاملاً للمنزل، الآن إنتزعت السنادة التي يرتكز عليها المنزل، وأصبح المنزل في وضع خطر»(2).

بعد شهرين، معلقاً على إنشقاق الوفد ذكر كيلي: «الإتجاه العام للتطورات الراهنة

---

(1) في رسالته إلى إيدن، ١٦ فبراير ١٩٣٧، وصف لامبسون المعاهدة المصرية البريطانية بإعتبارها «بداية لتحرر مصر من السيطرة البريطانية».

(2) لامبسون إلى إيدن ٢٩ يوليو ١٩٣٧.

يكمن في خلق ديكتاتورية حزب برجوازي صغير بزعامة النحاس ومكرم عبيد، وطرد العناصر السابقة من الوفد والتي تنتسب للعائلات شبه الأرستقراطية وطرد المثقفين»[1].

فلقد أدت راديكالية الثلاثينات، جزئياً، إلى إجبار الوفد، خصوصاً في صفوف منظمة القمصان الزرق الشبابية، إلى تبسيط إسلوبها السياسي وتخفيض نوعية العضوية، وأصبحت تتبنى إسلوباً ديماغوجياً يلائم الجماهير ونجحت جزئياً قدر طاقتها، لفترة، رغم فقدانها العناصر المثقفة الهادئة، ونجحت في إجتذاب أعداد كبيرة من طلاب المدارس والجامعات وضباط البوليس والجيش وقوات الأمن في صفوفها[2]، وبالمثل نجحت جماعة مصر الفتاة والإخوان المسلمين حتى عام ١٩٤٢، وكما ذكر كيلي:

«من الصعب في الشرق إدارة الآلة البرلمانية بدون أساليب ديكتاتورية، كما أوضحت تجربة تركيا وإيران[3] مثلما تظهر القصور المصرية والتركية الفخمة وصالوناتها الرائعة مباذل التهتك والإنحلال والإفتقار الكامل لحس أخلاقي».

في اكتوبر ١٩٣٧، أخبرت السفارة البريطانية في القاهرة أن «في الأعوام الخمسة الأخيرة تخلص الوفد تدريجياً من عناصره المثقفة. . .» وتحرك العديد منهم ناحية اليسار ليشكلوا جماعة الطليعة الوفدية، وآخرون تحولوا الى الماركسية والجماعات الشيوعية «وأصبح تكوين الوفد الآن أكثر بدائية مما لا يجعل المثقفين يتعاملون معه بجدية»[4].

وأصبح واضحاً أن العديد من الشباب الوفدي المتعلم بمن فيهم ضباط الجيش انقلبوا وأصبحوا يؤيدون الملك، بينما أدت الصدامات بين البوليس وفرق القمصان الزرق الى دفعهم نحو معاداة المعسكر الوفدي، وما بقي داخل ساحة الوفد هم «جموع ملاك الأراضي السذج والبسطاء في الأرياف ولقد لقي الوفد النحاسي حتفه».

في برقية من لامبسون بتاريخ ٢٩ نوفمبر ١٩٣٧، يقول: «بكل المؤشرات والدلائل فإن جلالة الملك يؤهل لأداء دور طاغية شرقي تقليدي. . . وسيقوم بإنقلابه عندما يطيح بالنحاس. . . الوفد الآن في الحضيض، وأصبح جواداً خاسراً للرهان عليه للأبد»[5]. وفي

---

(١) ١٦ سبتمبر ١٩٣٧.

(٢) فيما يتعلق بقيادته، تمويله والإنضباط الحربي أنظر تقرير كتبه كيون بويد «تقرير عن الحركة الطلابية في مصر» وأنظر أيضاً، برقيات لامبسون.

(٣) تقارير كيلي في يناير ونوفمبر ١٩٣٦.

(٤) رسالة بتاريخ ٢٨ اكتوبر ١٩٣٧ FO 407/221.

(٥) برقية FO 407/221, 740, 706.

٢٨ نوفمبر ١٩٣٧ حاول أحد شباب القمصان الخضراء «عز الدين عبد القادر» إغتيال النحاس خارج منزله، وفي ديسمبر أصبحت العلاقات بين الوفد والقصر متوترة جداً، وحضر إلى القصر أربعون ضابطا منهم سبعة عشر لواءا وفريقاً وأعربوا عن ولائهم الثابت للعرش، وجددوا قسمهم الخاص بالولاء للملك.

لقد تشكلت عوامل نجاح خطة عبد الناصر للقيام بالثورة التي قادها بعد خمسة عشر عاماً، عند لحظة إلتحاقه بالجيش في وقت إضطراب سياسي كبير شهدته مصر، حيث لم تستمر بهجة توقيع المعاهدة المصرية البريطانية طويلاً، عندما إنقلب زعماء الأحزاب ضد بعضهم البعض، بينما الملك الشاب تحوطه حاشية فاسدة يشجعون مطامعه الخرقاء، وإرتفعت أصوات قومية مصرية راديكالية جديدة، مع التركيز على الإنتماء العربي الاسلامي والأصول الفرعونية والعداء للأجانب والنزعات الفاشية، وأصبح سكان المدن أكثر إغتراباً عن زعمائهم، البروليتاريا المدينية الحديثة، والبرجوازية الصغيرة ذات الأصول الريفية، الطلاب، صغار الموظفين، والعمال الذين يعملون طيلة الوقت بحثاً عن لقمة العيش، والذين توافدوا على المدن، لم يعد يحركهم الولاء للمؤسسات السياسية القائمة، وأصبحوا مغتربين حتى عن ملكهم، وأصبحت روح مصر بعمرها البالغ الآف السنين بحاجة إلى «محرك» ولكنها لا تحتاج أي تنظيم ثوري خلفه، ببساطة، محرك، ريس، الذي يعتبر تبعاً لفكرة توفيق الحكيم «يفكر بقلبه وليس بعقله» فالمعبد المصري مهجور في إنتظار المعبود وظهور البطل.

في ٢٦ مايو ١٩٣٨، زار شاب مصري هاملتون في السفارة البريطانية بالقاهرة، وأكد أن الهدف السياسي العاجل: «. . . التخلص من «العصابة القديمة» من السياسيين المصريين وإحلالهم بأعضاء من جيل الشباب، مستعدون للتضحية لصالح مصر ورفاهيتها»[1]. يمكن أن يكون هذا الشاب هو جمال عبد الناصر، لكنه كان أحمد حسين زعيم جماعة مصر الفتاة، مع ذلك لم ينتهِ التشابه بين أهداف ورؤى الرجلين عند هذا الحد.

طبقاً لرأي الفريق محمد فوزي[2] مدير الكلية الحربية عام ١٩٥٧، إلتحق عبد الناصر بالكلية الحربية في مارس ١٩٣٧ بعد قضائه خمسة شهور في كلية الحقوق، من اكتوبر ١٩٣٦

---

(١) لامبسون إلى أوليفانت FO 371/21947.

(٢) بعد حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧، عينه عبد الناصر قائدا عاماً للقوات المسلحة ووزيراً للحربية، كان مرتبطاً وقتها بوزير الإعلام محمد فائق، وأصبح عضواً ضمن رجال عبد الناصر، وسجن في مايو ١٩٧١ بعد إتهام السادات له بالإشتراك في محاولة إنقلاب ضده.

إلى فبراير ١٩٣٧، وكان معه ٤٣ طالباً في دفعته، أمضوا ستة عشر شهراً، منهم خمسة شهور تمهيدية، في نهاية تدريبه، أصبح عبد الناصر قائد مجموعته، وبعد عدة شهور إلتحق عبد الحكيم عامر بالكلية الحربية، في بداية ١٩٣٨، منح عبد الناصر رتبة ملازم ثانٍ وتخرج من الكلية في أول يوليو ١٩٣٩ بمجموع إجمالي ٧١ بالمائة. وكانت درجاته ٩٥ بالمائة موضع إعجاب، وأرسل إلى الفرقة الخامسة في منقباد، وبعدها الى جبل الأولياء ثم الخرطوم في السودان، وسارت ترقياته بشكلها الطبيعي، ملازم أول في سبتمبر ١٩٤٠، نقيب في سبتمبر ١٩٤٢. وإبان عام واحد خدم عدة شهور على حدود الصحراء الغربية. في فبراير ١٩٤٣، عين مدرساً في الكلية الحربية وبقي بها حتى يوليو ١٩٤٦، حيث عين في الفرقة المدفعية السادسة، وإلتحق بهيئة تدريس الكلية الحربية في مايو ١٩٤٨، ورقي الى رتبة رائد في يوليو ١٩٤٨، وبعد أدائه لدوره البطولي في حرب ١٩٤٨، عين معلماً في مدرسة أركان الحرب في يوليو ١٩٤٩، في نوفمبر ١٩٥١ أصبح ضمن هيئة معلمي الكلية، ورقي إلى رتبة مقدم.

من الصعب تقييم هذه المعلومات القليلة عن شهور عبد الناصر الستة عشر في الكلية الحربية، والتي كان مديرها وقتها اللواء عبد الواحد عمار، والذي ذكر في مقابلة صحفية معه عام ١٩٥٧:

«لقد أظهر عبد الناصر رجولة مبكرة. . . كان قليل الإبتسام، صارماً وقوي الشخصية، فخوراً لم يُبد أيّ علامات ضيق من واجبه»[1]، وحصل أثناء فترة تدريبه بالكلية الحربية على رتبة عريف «أونباشي» وكان مدرسه في الكلية العقيد أحمد عبد العزيز الضابط الوطني وعضو الإخوان المسلمين».

كانت الأعوام التي قضاها عبد الناصر معلماً في الكلية الحربية أو كلية أركان الحرب، فترة عادية تخلو من الحوادث الهامة، وفي عام ١٩٤٤ تزوج جمال عبد الناصر السيدة تحية كاظم إبنة تاجر إيراني الأصل، قدم أجداده الى مصر عبر العراق، وفي الفترة ما بين ١٩٤٤ وحتى ١٩٤٦، إلتقى عبد الناصر أثناء فترة عمله مدرباً بالكلية الحربية، ثلاثة أشخاص أثروا في حياته بدرجة بالغة وهم:

خالد محيى الدين الماركسي، والذي أصبح فيما بعد عضواً في الحزب الشيوعي، (وهو خريج الكلية الحربية عام ١٩٤٠، وحاصل على بكالوريوس التجارة عام ١٩٥١) ومن خلاله إلتقى أحمد فؤاد المحامي الشيوعي أحد قيادات حدتو (والذي أصبح فيما بعد واضع

(١) أنظر المصدر، أغسطس ١٩٥٧.

القوانين الإشتراكية عام ١٩٦١، ورئيساً لبنك مصر)، ومن خلال ثروت عكاشة تعرف عبد الناصر على أحمد أبو الفتح رئيس تحرير وصاحب جريدة المصري اليومية والوفدية الإتجاه (تأسست عام ١٩٣٨). ومن خلال تنقلاته بين معسكرات الجيش إلتقى بالعديد من زملائه من منقباد، السودان، الإسكندرية، الصحراء الغربية، من بينهم: أنور السادات، زكريا محيى الدين، عبد الحكيم عامر، عبد اللطيف البغدادي، حسن إبراهيم، كمال الدين حسين[١]. وكانت له إتصالات أيضاً بجماعة الإخوان المسلمين والحزب الشيوعي. ويشاع أيضاً انه كان على علاقة بالمخابرات البريطانية وإخوان الحرية وهي المسؤولة عن العمليات البريطانية لمواجهة دعاية المحور في الشرق الأوسط[٢].

ربما يفترض المرء أن عبد الناصر قبل عام ١٩٤٥ لم يكن نشيطاً سياسياً، فليس هناك أي دليل (بخلاف كلمات المديح التي خلعها عليه زملاؤه فيما بعد) على إنغماسه حتى على ضفاف الحياة السياسية. بل على العكس، لقد ظهرت جدية وإهتمام عبد الناصر بدراساته العسكرية. وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية، بدا أنه يتصرف وكأنه يعزل نفسه وينأى عن السلطات وعن رؤسائه، خلافاً لنشاطات السادات وعبد اللطيف البغدادي على سبيل المثال[٣].

من المؤكد أنه قد تأثر بالأزمة السياسية الناجمة عن علاقة مصر بالحرب خلال عامي ١٩٤٠ ـ ١٩٤٢، كما تأثر بها جميع رفاقه في المؤسسة العسكرية، وكان المدافعون عن مصر في تلك الأزمة الملك ورجاله خصوصاً علي ماهر، وعملاء الملك، مثل اللواء صالح حرب باشا والذي خلف المرحوم عبد الحميد سعيد بك رئيساً لجمعية الشبان المسلمين، وزعيم مصر الفتاة (التي أصبح أسمها الحزب الوطني الإسلامي) أحمد حسين، والمناضل الصلب لكن بلا فاعلية، الفريق عزيز المصري الذي عُزل عن موقعه مفتشاً عاماً للجيش المصري تحت إصرار الإنجليز، ومن الشخصيات البارزة التي عارضت دخول مصر الحرب رجل القصر ومستشار الملك أحمد حسنين[٤].

---

(١) كلهم أعضاء مؤسسون في مجلس قيادة الثورة، أنظر أنور السادات «ثورة على ضفاف النيل» نيويورك ١٩٥٧.

(٢) أنظر، فريا ستارك «غبار على أقدام الأسد» لندن، ١٩٦١ ص ٦٧، أنا مدين لهذا المرجع، فلقد أشار أحمد أبو الفتح في كتابه إلى علاقات عبد الناصر، وادعى كمال رفعت فيما بعد أن تكتيك عبد الناصر كان في الإرتباط بجماعات مختلفة.

(٣) أنظر، على سبيل المثال، أنور السادات، هذا عمك جمال، القاهرة، ١٩٥٥ وكتابه أسرار الثورة المصرية، القاهرة، ١٩٦٥.

(٤) حول دور أحمد حسنين، أنظر، محمد التابعي من أسرار الساسة والسياسة المصرية، القاهرة د. ت.

أصبحت قضية موقف مصر من الحرب هي محور الحياة السياسية، ولقد أصبح القصر ملاذ كل المتعاطفين مع المحور، وصار أكثر علانية عندما تدهور الوضع العسكري البريطاني في الصحراء الغربية والبحر الأبيض المتوسط وصار محفوفاً بالمخاطر عامي ٤١ ـ ١٩٤٢. في مذكرة أرسلها من القاهرة في يناير ١٩٤٢، ذكر رئيس المكتب الخارجي السير الكسندر كادوجان: «يجب أن نؤمن جانبنا من ناحية القصر والشعب اللذين لم يتحدا هكذا من قبل كما هما الآن ضدنا»، وهكذا أصبح الوفد الذي كان وقتها في المعارضة، نافعاً للبريطانيين وحتى يمكن رصد نشاطات عملاء المحور ومواجهتها.

في ٤ فبراير ١٩٤٢، حاصرت القوات البريطانية قصر عابدين، وإصطحب السير مايلز لامبسون الجنرال ستون قائد القوات البريطانية في الشرق الأوسط، وإقتحموا مكتب الملك فاروق وقرأوا عليه إنذاراً يطالبه بتعيين حكومة يترأسها النحاس باشا أو يتنازل عن العرش. ولقد رأى الوطنيون المصريون في الطريقة التي سلم بها الإنذار إغتصاباً لإستقلال البلاد وسيادتها، وأصبحت معاهدة ١٩٣٦ معاهدة العار، والقيادة الوطنية لحزب الوفد كمجموعة من الخونة. لكن هذا التعاطف الطارىء للمصريين مع ملكهم المهان لم يدم طويلاً، فهو قد فشل في الحفاظ على ولائهم له، فلقد بدد بسلوكه الشخصي أي أمل في بقاء هذه المشاعر الطيبة حياله طيلة العقد التالي.

هناك تقارير عديدة عن إجتماعات ولقاءات في نادي الضباط للنظر في طرق الإحتجاج على حادث قصر عابدين، وساد القلق والتململ في صفوف الجيش، بينما هددت حكومة الوفد المدعومة بتأييد بريطاني بمحاكمة الضباط المثيرين للمشاكل أمام محاكم عسكرية وإصدار قرارات بنقلهم، وهي إجراءات لم تكسب الوفد تعاطف الجيش معه. بينما كان الملك نشطاً من جانبه بين صفوف الجيش، من خلال صنائعه الموالينْ له شجع تشكيل الحرس الحديدي من ضباط حرسه، في نفس الوقت عندما تقدم الألمان تجاه حدود مصر، تزايد نشاط الإخوان المسلمين وتحريضهم السياسي في صفوف طلاب الأزهر وباقي المؤسسات الدينية[1].

في مارس ١٩٤٩ إنتهى الواجب القتالي لجمال عبد الناصر في حرب فلسطين، والتي جرح أثناءها، وقبيل عودته للإسماعيلية كان قد أقام علاقات في ديسمبر عام ١٩٤٧ مع مفتي فلسطين، والذي كان مستقراً مع عائلته في حي الزيتون بالقاهرة، وإتصل أيضاً بوحدات المتطوعين من أعضاء الإخوان المسلمين، من خلال صديقه الضابط كمال الدين حسين، ومدرسه السابق في الكلية الحربية العقيد أحمد عبد العزيز أحد الموالين للفريق عزيز

(١) أنظر (1942) FO 371/31424.

المصري، وعلى الجبهة في فلسطين، وتبعاً لإعترافه شخصياً، حاول حشد الضباط وتجنيدهم في تنظيم لم يكن إلا فكرة في ذهنه وقتها، لمواجهة الفساد في مصر.

«في مقر القيادة شعرت بالقلق وخرجت أتجول في مواقعنا للإطمئنان على مشاعر ضباطنا، ولن أنكر أنني كنت أحاول ضم بعضهم في تنظيم الضباط الأحرار، في حديثي مع الضباط لم أدخل مباشرة في الموضوع، كان أسلوبي في تلك الفترة يستهدف أمرين: الأول كسب ثقة هؤلاء الذين أقابلهم، وثانياً تقوية علاقتي الشخصية بهم بقدر الإمكان، كنت واثقاً... أن الثقة والصداقة الشخصية سيفضيان حتماً إلى ما هو أعمق عندما يحين الوقت الملائم»[1].

ويحتمل أن يكون هذا سبب التحقيق مع عبد الناصر من جانب رئيس الأركان اللواء عثمان مهدي ورئيس الوزراء عبد الهادي في ٢٢ مايو ١٩٤٩.

في تلك الفترة تصاعدت الأعمال الإرهابية للإخوان المسلمين وباقي الجماعات الراديكالية، وإتهمت بإغتيال أمين عثمان باشا، ورئيس الوزراء النقراشي، وحكمدار بوليس القاهرة سليم زكي، ورئيس المحكمة العليا أحمد الخازندار. وقام عملاء الحكومة بإغتيال المرشد العام للإخوان المسلمين حسن البنا في فبراير ١٩٤٩. وتورطت عناصر من جماعة مصر الفتاة ومجموعة من الجيش، كان السادات أحد أعضائها، في إرتكاب أعمال عنف وإرهاب، خصوصاً تفجير أماكن عامة[2]. وتجدد الصراع بين الوفد والملك أكثر مرارة وحدة، بينما تكثف الوجود البريطاني منذ مارس ١٩٤٧ في منطقة قناة السويس، وأعاد أحمد حسين زعيم مصر الفتاة تسميتها بالحزب الإشتراكي المصري، وأصبح أكثر فعالية ونشاطاً. وهيأ تحريضه المتطرف لخلق مقدمات حريق القاهرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢. وتم سحق العناصر الشيوعية على أيدي إسماعيل صدقي في ١٩٤٦، وإبراهيم عبد الهادي في ١٩٤٩، تبعه ظهور جماعات ماركسية وطنية في الجامعة وفي أوساط العمال[3]. وكان واضحاً إنتقاد مجموعة كبيرة من الشباب الوفدي لقيادة الحزب، كان بارزاً منهم أحمد أبو الفتح صاحب جريدة

---

(١) في كتابه «ذكريات حرب فلسطين» نشرت مسلسلة في مجلة آخر ساعة الأسبوعية مارس - ابريل ١٩٥٥، ونشر في كتاب محمد صبيح «أيام وأيام».

(٢) أنظر السادات، أسرار الثورة، وسعد زغلول فؤاد، القتال في القنال القاهرة، ١٩٦٩.
وطارق البشري، الحركة السياسية في مصر ٤٥ - ١٩٥٢.

(٣) أنظر والتر لاكوير، الشيوعية والقومية في الشرق الأوسط، نيويورك، ١٩٥٦، رؤوف عباس. اليسار المصري ٢٥ - ١٩٤٠، بيروت، ١٩٧٢، رفعت السعيد، الصحافة اليسارية في مصر، ٢٥ - ١٩٤٨ بيروت ١٩٧٤.

المصري ورئيس تحريرها، والذي أصبح صديقاً لعبد الناصر ومستشار حلقته الضيقة من أصدقائه الضباط.

داخل الجيش ذاته، كان هناك إنقسام بين قياداته العليا المستعدة لقبول النصائح البريطانية وأوامر القيادة الإنجليزية أثناء الحرب، وعلى الجانب الآخر المناضلون الموالون للمحور مثل الفريق عزيز المصري (مفتش عام الجيش ١٩٣٨ - ١٩٤٠) المدعوم من علي ماهر، واللواء صالح حرب المتعصب الإسلامي ووزير الحربية سابقاً، والذي أثر في جيل عبد الناصر. وتغلغل الإخوان المسلمون في صفوف الجيش من خلال عبد المنعم عبد الرؤوف (الذي حاول عبد الناصر تصفيته بعد ١٩٥٢، ولكنه هرب إلى لبنان) والعقيد رشاد مهنا، كمال الدين حسين، وآخرين، عموماً، فلقد إرتبط في ذهن هؤلاء الضباط ذوي الأصول الإجتماعية الشعبية العداء التام لبريطانيا بالقيم الدينية الإسلامية. وسواء أكان حقيقياً أم لا أمر وجود منظمة سرية في الجيش بقيادة الفريق عزيز المصري، فإنه أمر غير هام[1]. فلقد إجتذبت شخصية المصري وسيرته البطولية في الجزيرة العربية وليبيا وأسبانيا، وعداثه لبريطانيا هؤلاء الضباط، وكان له تأثير هائل على الضباط الشبان، وعلى سبيل المثال، كتب محمد صبيح مؤكداً التأثير الكبير للفريق عزيز المصري على الضباط المتمردين والمنشقين إبان الحرب العالمية:

«ليس هناك أدنى شك أن عزيز المصري كان هو الملهم لكل هذه الأفكار. . . وكان تلاميذه وسط الضباط هم أقوى وأصلب العناصر الوطنية الغيورة في تلك الحركة. . .»[2]
ومن المثير هنا إسترجاع ملاحظة السير لايمز لامبسون المتنبئة قبيل إندلاع الحرب بعام، بينما سحب الحرب تحجب كل الأفق، عندما طلب السير لانكولت أوليفنت من وزارة الخارجية تقييماً عاماً للموقف في مصر وتحديد الخيارات البريطانية، وفي رده إشتكى لامبسون من طلب أوليفنت الذي «أصابني بالضيق إلى حد الضجر: أي إتجاه يمكننا إتخاذه؟» وإفترض لامبسون ثلاثة إحتمالات:

«(١) فقدان فاروق لشعبيته بسبب سلوكه الشخصي، ويمكن للأحزاب والبرلمان طلب عزله.

---

(١) أنظر، ميجور سانسوم، تجسست على الجواسيس، لندن، ١٩٦٥، محمد أنيس، ٤ فبراير في تاريخ مصر السياسي، بيروت، ١٩٧٢، ص ٤٢، ٥١ وحول شخصية عزيز المصري FO 371/19070.

(٢) محمد صبيح، بطل لا ننساه، عزيز المصري وعصره، بيروت، ١٩٧١.

(٢) يمكن حدوث صراع دستوري بين القصر والبرلمان وخلاله يؤيد فاروق العناصر المحافظة والجيش، لكنه قد يصبح حمام دم لو هيج قادة البرلمان دهماء ورعاع المدينة.

(٣) يمكن حدوث تمرد عسكري ضد فاروق على مبادىء عرابي مع إتجاه لفرض ديكتاتورية عسكرية والإطاحة بعائلة محمد علي[١].

بدأ تحول عبد الناصر عن إرتباطه بمصر الفتاة عام ١٩٤٦، وبدأت عملية إعادة تربيته السياسية عندما إلتقى بصديقه خالد محي الدين ومن خلاله أحمد فؤاد، لكن مع ذلك لم تكن علاقته باليسار وثيقة مثلما كانت علاقاته باليمين ويسار الوسط من المجموعة الوفدية التي جسدها أحمد أبو الفتح، فلقد كان عبد الناصر يزوره بإنتظام، ليستشيره عن دور الصحافة، وصنع اللعبة داخل الوفد، حالة العلاقات المصرية البريطانية. ومن خلال كمال الدين حسين التقى أنور السادات، كمال الدين رفعت (الضابط بالحرس الملكي منذ ١٩٤٤، وأحد حواري الفريق عزيز المصري، الذي التقى بجمال عبد الناصر في أشدود إبان حرب فلسطين)[٢]. وأقام عبد الناصر علاقات وثيقة مع الإخوان المسلمين وباقي الجماعات الراديكالية، وكوّن علاقة مع جريدة أخبار اليوم التي أسسها التوأمان علي ومصطفى أمين، وأتاح له صديقه عبد الحكيم عامر قناة إتصال مع القصر من خلال معرفته بيوسف رشاد الضابط الطبيب المرتبط بالملك، وبالتالي أمد عبد الناصر بمعلومات عن تنظيم الحرس الحديدي داخل الجيش، وكان عبد الحكيم عامر إبن شقيقة الفريق حيدر قائد الجيش (٥٠ ـ ١٩٥٢)، ومن خلال عبد المنعم عبد الرؤوف وعبد اللطيف البغدادي وجمال سالم أقام عبد الناصر علاقات أوثق مع الإخوان المسلمين.

من خلال مصر الفتاة تعلم عبد الناصر ورفاقه في وقت مبكر عام ١٩٣٨ العمل من خلال الجيش للقيام بإنقلاب «يطيح بالعصابة القديمة ويوقف العمل بالدستور ويقيم نظاماً على شاكلة الدول الشمولية»[٣] في الواقع، أنهم عجزوا في تلك الفترة عن إدراك مدى السهولة التي يمكنهم بها الإطاحة بالعصابة القديمة[٤]. ولكن الأفكار الغامضة عن الإصلاح

---

(١) ٢٣ يوليو ١٩٣٨ FO 371/21948.

(٢) أنظر سيرته الذاتية مسجلة صوتياً ومنشورة في كتاب عبد التواب عبد الحي، عصير حياتي، القاهرة ١٩٦٦، وكمال الدين رفعت، حرب التحرير الوطنية، مذكرات كمال الدين رفعت، القاهرة ١٩٦٨، المجلد، الأول.

(٣) لامبسون إلى أوليفانت ٢٥ مايو ١٩٣٨.

(٤) وصف توفيق الحكيم هذه الحادثة كسبب لتغيير رأي الشعب كله في «كتابه» عودة الوعي.

الزراعي، العدالة الإجتماعية إلغاء كافة الإمتيازات والألقاب، لتمصير وإنشاء طبقة إجتماعية واحدة[1]، كل هذه أفكار نشرتها مصر الفتاة[2].

بإستثناء عبد اللطيف البغدادي لم يسافر أحد من جماعة عبد الناصر إلى أوروبا، والقليل منهم كان يعرف لغة أوروبية جيداً؛ ولم يدرس أحد منهم بالخارج، فلقد كان الطابع المصري المحلي هو السائد بينهم. وفوق كل ذلك، كان تفكيرهم يتركز على هدفهم في الإطاحة بالعرش الملكي وفرض قيادة جديدة للبلاد. وربما أن إستحواذ هذه الفكرة على ذهن عبد الناصر هي التي منحته تلك المرونة التكتيكية البارعة، تبعاً لأدواته المتاحة، تحالفه وتعاونه مع كل الجماعات المعادية للنظام، وبالمثل مع القوى الخارجية مثل السي أي أيه، لو كان ممكناً تصديق مزاعم مايلز كوبلاند[3].

يبدو كما يؤكد محمد حسنين هيكل والعديد من أوثق المقربين له من حركة الضباط الأحرار أن عبد الناصر إكتسب دافعه للسلطة في الفترة من ١٩٤٦ حتى ١٩٤٩، ولم يكن تطوراً عشوائياً أو مصادفة، بل هو مرتبط بخبرة تكوينه في الثلاثينات والأربعينات. فلقد تأثرت حياته المبكرة بمشاعر الرفض، العزلة، واليأس، وسنوات صباه وبداية سنوات خدمته العسكرية بقوة ترسيخ غريزته الفطرية ونزوعه للمحافظة والروح الأوتوقراطية (الإستبدادية) في مواجهة مهاترات وإستهتار السياسيين، وإتسمت حياته العسكرية بعد حرب فلسطين بالنفور والإشمئزاز من الملك وحكمه والشعور بالمهانة من هزيمة فلسطين، وبالتالي تحولت الفتوة التي أظهرها كاتب صحفي فاشل في الثلاثينات والأربعينات لتصبح طموحاً في السلطة. بالإضافة إلى إقتناعه المستمد جزئياً من نقد توفيق الحكيم للحكومة البرلمانية الفاسدة ودعوته إلى مصلح بطل يقدسه المصريون، وأصبح هذا مركباً فعالاً. وأصبح مصطفى كامل وسعد زغلول هما النموذجان السابقان.

في عام ١٩٤٩، ربما لم يكن بعيداً عن عبد الناصر وليس مستعصياً عليه الوصول إلى ما اقترحه أحمد حسين زعيم مصر الفتاة في مايو ١٩٣٨ على هاملتون حول كيفية التخلص من «العصابة القديمة».

---

(١) أنظر خطب عبد الناصر في منتصف ونهاية الستينات وخطابه أمام مجلس الأمة في ٢٥ مارس ١٩٦٤.
(٢) أنظر برنامج، مصر الفتاة المنشور في القاهرة في ١٨ مارس (الأهرام).
(٣) مايلز كوبلاند، لعبة الأمم، لندن، ١٩٦٩.

الفصل الثاني

جذور عبد الناصر السياسية

«عندما ينظر المرء إلى شباب اليوم يكون مستعداً لتناسي تشكيل الشخصية التي تكون نقدية حاسمة في شبابها كقضية فعلية لجيل الشباب».

«إيريك إيركسون، الشخصية».

عندما قام عبد الناصر ورفاقه بثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كـان عمر الكليـة الحربيـة قرابـة الستة عشر عاماً. فقبل ١٩٣٦ كـانت مدرسـة حربيـة، وطيلة مائـة عام حتى ١٩٢٨، كـان نادراً ما يحصل طلابها على شهادة الثانوية العامة، أما بعد ١٩٣٦ كـان يجب حصول طـلابها على الثانـوية العـامة كشرط لـلإلتحاق بهـا، لذا كـانوا يلتحقـون وهم على مستـوى عال من التعليم العـام؛ وهم أيضاً مـزودون بخبرة أربـع سنوات من النشـاط السيـاسي في المـدارس الثانوية، والمشاركـة في التوجهـات الوطنيـة المتطرفـة للأعـداد المتزايـدة من طلاب المـدارس الثانوية في البلاد.

لقد شكل خريجو الكلية الحربيـة في الأعوام من ١٩٣٨ حتى ١٩٤٢ جماعة من أخـطر ضبـاط الجيش، لأنهم إلتحقوا بـالكلية الحـربية بعـد إلمـامهم بخـبرة المـظاهـرات السيـاسيـة وإكتساب الآراء الوطنية السطحية المفتقدة للتأصيل، وتأثروا بالجماعات الإسلاميـة المحافـظة والـراديكاليـة وشبه الفـاشية في تلك الفـترة القلقـة العصبيـة في أعـوام ٣٣ ـ ١٩٣٦. فلقـد شاركوا في الاضرابـات والمظاهـرات ضد حكـومات الأقليـة صنيعة القصر؛ وتـظاهروا عـام ١٩٣٥ مطالبين بعـودة دستور ١٩٢٣ الـذي ألغاه إسـماعيل صـدقي عام ١٩٣٠، وإستبـدله بدستوره، الذي يفرض قبضته الحديدية.

أتـاح تخفيض رسوم الإلتحـاق، وفي الحالات الخـاصـة إلغـاؤهـا، لأعـداد كبـيرة من الشبـاب ذوي الأصول الفقـيرة والشعبية دخـول الكليـة الحـربيـة وهم: أبنـاء صغـار مـلاك الأراضي الزراعية، موظفي الحكومة، التجار والمدرسين، وبالتالي غياب أي تقاليـد عسكريـة أرستقراطية، كما في إنجلترا أو فرنسا، أو تقاليد اقطاعية للمحاربين المحترفـين كما في ألمـانيا، وبالتالي عدم إتصاف مؤسسة الضباط المصريين بخلائق وعلاقات النخبة المرتبطة بطبقة مدنية في المجتمع. بل على النقيض، فإن الزيادة السريعة لأعداد خريجي المدارس الثانويـة وطلاب وخريجي الجامعـات الذين سحقتهم المصـاعب الإقتصاديـة والتغيرات الإجتـماعية السريعـة، وشعروا بالإغتراب عن النظام السياسي القائم الـذي إعتبروه مقـتراً عليهم ومتبلداً ومعاديـاً؛ فلقد ترعرعوا بينها المؤسسات الصناعية والمـالية والإقتصـادية الـوطنية الـوليدة تتنـامى ويتسع

الوعي بضرورة تحقيق الإستقلال الاقتصادي، وتتزايد حدة المنافسة مع الأجانب للسيطرة على التجارة والصناعة. وتشكل وعيهم السياسي في فترة النمو الجماهيري، والتحضير السريع، وإتساع قاعدة التعليم وتأسيس الجامعات العلمانية.

هكذا أصبح طلاب الكلية الحربية فترة ما بعد عام ١٩٣٦ ينتمون لأصول إجتماعية وخبرة سياسية تشكل جيلاً شاباً قدم حركات وطنية راديكالية جديدة، مثل مصر الفتاة، الإخوان المسلمين، الماركسيين أنصار السلام، حركة حدتو الماركسية (الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني) وكلها تعارض الأحزاب القديمة التقليدية التي ينتمي زعماؤها للبرجوازية الوطنية من ملاك أراضي، وكبار موظفي الدولة، السياسيين، ورجال الدولة.

لهذا لم يكن الضباط الأحرار الذين إستولوا على السلطة ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ هم الجماعة الطليعية الوحيدة القادرة على قيادة حركة إصلاحية أو ثورية في البلاد؛ فلقد كانوا يشكلون قطاعاً ضئيلاً من النخبة الجديدة الراديكالية الوطنية في أوساط شباب البلاد فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية. ومع ذلك عندما قاموا بثورتهم فعلوها بمفردهم، ولم يشاركهم أية قوة راديكالية أخرى في مصر. وهم كحركة راديكالية داخل الجيش، كان الضباط الأحرار أكثر تأثراً في تكوينهم السياسي بالثقافة السياسية للشباب الراديكالي الذين رفضوا النظام القديم للعرش الملكي أو الأحزاب السياسية التقليدية، وسعوا للإطاحة بها بالقوة.

في عام ١٩٦٦ كتب محمد صبيح العضو القيادي في جماعة مصر الفتاة مؤكداً أن الثلاثينات شهدت ظهور نزعات:

«حركات الشباب الهادفة للنضال الوطني ضد الإستعمار... كان أهمها، مصر الفتاة والاخوان المسلمين... وأظهروا أن النظام الحزبي لم يعد قادراً على إشباع رغبات وطموحات الشباب الوطني الصاعد وطلائع الجماهير».

مع بداية عام ١٩٣٧ تدافع الشباب أعضاء مصر الفتاة والإخوان المسلمين لدخول الكلية الحربية والجيش... «وأصبحوا نواة حركة الضباط الأحرار» وفي رأي محمد صبيح أن ثورة ١٩٥٢ «كانت ثورة شباب وطني ملهم بالأخلاق والمبادىء الوطنية لشباب الثلاثينات» وهكذا، كانوا إمتداداً لحركة الشباب في تلك الفترة. وفي الحقيقة، لقد أخبر وجيه أباظة الضابط البارز في القوات الجوية وعضو مصر الفتاة، بعد ثورة يوليو بفترة، محمد صبيح بأن عبد الناصر زعيم الثورة كان زميلاً قديماً في مصر الفتاة، ويقول محمد صبيح «فجأة تذكرت ذلك الشاب الهادىء الذي كان يقود فرع مصر الفتاة في باب الشعرية» عندما كان طالباً في مدرسة النهضة الثانوية.

هكـذا، شكل الأعضـاء البارزون في مجلس قيـادة الثـورة (١٩٥٢ ـ ١٩٥٦) والـذين قاموا بدور فعال يوم الثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، جيلاً نما في ظل مناخ عنف الثلاثينات. وكانوا ضباطاً صغـاراً إبان الحـرب العالميـة الثانيـة، وأدوا دوراً وواجباً نشـطاً في حرب فلسـطين، شاركوا أو تعاونوا مع جماعات إرهابية سرية عديدة في العقد السابق على إندلاع ثورتهم.

ولقـد ولدوا جميعـاً في الفترة مـا بين ١٩١٧ ـ ١٩٢٢، أنـور السـادات، عبـد اللطيف البغدادي، زكريا وخالد محي الدين، صلاح وجمال سالم، حسن إبراهيم، كمال الدين حسين، عبد الحكيم عامر، حسين الشافعي، كمال الدين رفعت، حسن عزت، وجيه أباظـه، حسن التهامي، جمال عبد الناصر، وكانوا في دفعـة واحدة، أو دفعـات متواليـة في الكلية الحـربية، ومعـظمهم إلتحق بكلية أركـان الحرب معـاً، وخدمـوا في نفس الوحـدات والأسلحـة وأدوا واجبات عسكرية معاً، وخاضوا حرب فلسطين معاً عامي ٤٨ ـ ١٩٤٩.

شكـل هؤلاء الضباط «جيـلاً تاريخيـاً». فلقد تعـرضوا لنفس تـأثير المنظمات الوطنيـة الراديكالية والجماعات (الفدائية) الإرهابية المعاديـة لبريـطانيا، إتصفـوا بنمط عام من الخـبرة العسكرية، وتأثروا بنفس القوى والأحداث السياسية: الإنذار البريطاني للملك في ٤ فبرايـر ١٩٤٢، الحـرب العالميـة، العمل الفـدائي وإغتيال القـوات الـبريـطانيـة في القنـاة، حـرب فلسطين.

رغم أنهم لم يتبنوا أيديولوجيـة مشتركـة، فلقد إستمـدوا تجانسهم من التعليم التـأهيلي الرسمي، والأصول الإجتماعية الإقتصادية المشتركة لتلك الطبقات الدنيا في الريف والمدينـة، وكانت لهم نفس الطموحات، وعانوا نفس الإحباطات، وإشتركوا في خطط غامضة للإطاحة بالنظام القائم. وكانـوا يتطلعـون قلقين لخـلاص راديكالي من الـوضع الـراهن، الذي كـان يسوده ويسيطر عليه جيل من القيادات السياسية ظهر وصعد تحت الحماية البريطانية في أعـوام ١٩٠٧ ـ ١٩١٩، وأصبحوا حكام مصر عام ١٩٢٣.

لقـد لعب الوفـد حامـل لواء الـدفاع عن الإستقـلال دوراً رئيسيـاً في تشكيـل وعيهم السياسي المبكر، ولكن لأسباب عديدة سنوضحها لاحقاً، لم ينجح الوفد أبداً في التغلغـل في صفـوف الضباط، ليسيـطر عليها بمفـرده، ولكن الوطنيـة المتطرفـة الفعـالـة والأقـل علمانيـة للحركات السياسية في الثلاثينات والأربعينات، هي التي طرحت على الضباط الشبان طريقـاً مباشراً وإقتصادياً وحتى اسلوباً عنيفاً للوصول إلى السلطة.

كـانت الأجواء السيـاسيـة لمصر الثـلاثينـات، وبـالمثـل في الهـلال الخصيب، هي التي أثمـرت الحـركـات الـوطنيـة المتـطرفـة التي جعلت الشبـاب يفضـل تبني العنف السيـاسي.

والتجسيد الأساسي لهذا الإتجاه في مصر كـان حركة مصر الفتاة، وجماعة الإخوان المسلمين، والجماعات الإرهابية الصغيرة في صفوف الحزب الوطني، وانضم إليها عبد النـاصر والسادات في الثـلاثينات، وقبيـل وأثناء الحـرب العالميـة الثانيـة وقع بعضهم تحت تـأثير الفـريق عزيـز المصري المعادي لبريطانيا، والذي كان مفتشاً عاماً للجيش لفترة وجيـزة ٣٨ ـ ١٩٤٠، وقبل هذا كان مديراً لكلية البوليس، وكلهم تأثروا وإنبهروا بالقوة الكاسحة لألمانيا النازية، ولفترة تأثروا بدعاية عملاء إيطاليا الفاشية في مصر.

تأسست مصر الفتاة عام ١٩٣٣ من مجموعة من طلاب الحقوق بالقاهرة، ترأسها أحمد حسين وفتحي رضوان، كان تركيزها على دور الشباب في النضال من أجل الإستقلال وإعادة بناء مصر القوية، ومن الطبيعي أن عبد الناصر ورفاقه إستحسنـوا تلك الدعـوة، كان فتحي رضـوان ـ سكرتـيرها العـام والـذي أصبح في ظـل الثـورة وزيـر الإعـلام ووزيـر الإرشـاد والثقافة ـ، قبيل تأسيس مصر الفتاة، سكرتيراً لمنظمة تسمي نفسها «اللجنة التحضيرية لمؤتمر طلاب الشرق» وفي منشور يدعو للتعـاون بين طـلاب الشرق، إقترح عقـد مؤتمر سنـوي في عـواصم مشرقية مختلفـة لمناقشـة التعاون الإقتصـادي والسياسي بـين دول الشرق، وكان من مستشاري لجنة فتحي رضوان العديد من الأكاديميين المشهورين، والأدباء، والقيادات الوطنية مثل: د. عبد الوهاب عزام، أستاذ اللغات الشرقية بجـامعة القـاهرة، خليـل بك مـطران، الشـاعر الشهـير، د. عبد الـرحمن شهبندر، القـومي العـربي السـوري، الـذي أغتيـل عـام ١٩٤٠، أحمد حسين، المؤسس المشارك مع فتحي رضوان لجماعة مصر الفتاة في العام التالي، وموسى الحسيني المناضل الفلسطيني، وعبد القادر الحسيني الذي قتل في المعركة الحاسمة ضد العصابات الصهيونية عام ١٩٤٨، مصطفى الوكيل الذي أصبح أحـد قيادات مصر الفتـاة، ومنـدوبها الـرئيسي في العراق عـام ٣٩ ـ ١٩٤١، وهرب إلى المـانيا بعـد ذلـك ليتعـاون مـع النازي، نور الدين طراف، الطالب بكلية الطب، الذي أصبـح رئيساً للوزراء لفـترة وجيزة بعد الثورة.

لم يكن ظهور مصر الفتاة ظاهرة شاذة أو منعزلـة في الشرق الأوسط إبان تلك الفـترة، فلقد كانت حـركات الشبـاب تنادي بـالتنافس لتحقيق القـوة والمجد العـربي وتحريـر الأقطار العـربية من السيـطرة الأجنبية، وتخليصهـا من القهر الـداخلي والـطغيان السـائـد في الهـلال الخصيب أيضاً، وبالاضـافة إلى الحـزب القومي الإجتـماعي السوري الجيـد التنظيم والـذي أسسه اللبناني المسيحي أنـطوان سعادة عـام ١٩٣٢، كان هنـاك عصبة القـومية العـربية التي تأسست في لواء الاسكنـدرونة عـلى يد زكي الأرسـوزي، والنادي العـربي ومنظمـة الفتوة في بغداد.

في عام ١٩٣٥، نشرت منظمة الفتوة أول منشوراتها في بغداد «حركات الشباب في العالم» وكان خطابها الصريح مثيراً لأنه يعكس مزاجاً عاماً من السخط السياسي، والنزوع للعنف واللجوء إلى المنظمات القومية والإجتماعية شبه العسكرية:

«العالم اليوم تجتاحه حركات شبابية تستهدف إصلاحاً جذرياً للأسس الإجتماعية الإقتصادية والسياسية لحياتهم، وتطمح لبناء أمة قوية قادرة على مواجهة العالم بتياراته المختلفة، وتتميز هذه الحركات عن كل ما عداها بقوميتها، عملها لإيقاظ روح الخدمة العامة وفعالية وتأثير الشباب، وكل هذا يبعث أمجاد تاريخ الأمة، وأبطالها، والحفاظ على الروابط الإجتماعية مثل اللغة، الثقافة، العادات».

ويمضي المنشور في تأكيد أن الحرب العالمية الأولى وما تلاها قد أيقظت الروح القومية للشباب لمواجهة الشيوعية. وسرد أمثلة لبعض حركات الشباب مثل القمصان الحمر في الهند بقيادة عبد الغفار خان، والقمصان الخضر لمصر الفتاة.

في نفس العام، نشر «المنهج القومي العربي» في بغداد، بعد تعريف الإستعمار كمصدر لكل أمراض الأقطار العربية والسبب الأساسي لتجزئتها وعدم إتحادها، وقصرها المادي والمعنوي، وطالب المنهج بأيديولوجية عربية جديدة للعمل على مواجهة الإستعمار وتحقيق الوحدة العربية «طالما أن الحركة هدفها الإحياء والنضال من أجل المستقبل، من الطبيعي أنه يعتمد أساساً على الشباب العربي» وهي تدعو أيضاً إلى ملكية الدولة لوسائل الإنتاج الكبرى ومصادر الثروة القومية.

بعد عامين، في أكتوبر ١٩٣٧، نشر محمد محفوظ الموظف بالجمارك كتابه «القميص الأزرق» الإشارة الواضحة إلى منظمة الشباب الوفدي المسماة بنفس الإسم، وذكر محفوظ أن «منظمات القمصان» ظاهرة قديمة جداً، ترجع إلى التاريخ الإسلامي أيام أبي مسلم الخراساني، وكانت منظمة القمصان جزءاً من الحركات القومية في الهند وإيطاليا. في حالة مصر، أكد محفوظ أن القمصان الزرق لم تكن مرتبطة بالفاشية الأوروبية، بل هي من ثمار ثورة ١٩١٩ للإستقلال الوطني.

عندما إنتزع الضباط الأحرار السلطة، وصعدت شعبية عبد الناصر، إنشغل معظم طلاب مصر بسؤال ما إذا كان عبد الناصر أو الضباط الأحرار لديهم أيديولوجية معينة، مما حجب عنهم حقيقة أن النظام الثوري الجديد قد طرح برنامجاً للإصلاح الوطني فور تسلمهم السلطة، وطبقوه في السنوات الثماني الأولى لحكمهم. وبعد ذلك، لا يوجد بالكاد مزيد من الخطوات في هذا الإتجاه، ما هي الأصول أو السابقات التي أتاحت صدور قوانين الإصلاح

الزراعي بعد قيام الثورة بخمسة وأربعين يوماً؛ هذا سؤال لم يتم تناوله بجدية.

هناك إشارات عديدة في خطب عبد الناصر الجماهيرية، وكتابه «فلسفة الثورة» الذي نشر لأول مرة عام ١٩٥٤، يشير إلى الخلفية التاريخية لتنظيم الضباط الأحرار، وبالمثل خلفياته التاريخية، وتوجهاته السياسية. وهناك أيضاً كتابات بعض أعضاء تنظيم الضباط الأحرار النشطين، مثل أنور السادات وكمال الدين رفعت، التي ألقت المزيد من الضوء على تلك الخلفيات. والفحص الدقيق لتلك الكتابات يمدنا بتفسير حي لبدايات وتطور حركة الضباط الأحرار، وتوضح جذورها في الإتجاه العام للأحداث السياسية في مصر من عام ١٩٣٣ حتى ١٩٤٣.

تتيح أية قراءة متمعنة لكتاب عبد الناصر معرفة بعض النتائج الهامة، حيث نجد تأكيداً صريحاً على أن الضباط الأحرار خصوصاً عبد الناصر نفسه لم يكن لديهم أيديولوجية (فلسفة) مشتركة أو عقيدة سياسية، وليس أكثر من أفكار سياسية مشبعة بالإيمان الديني وخليط من الأفكار الإسلامية الفاشية التي كانت رائجة في منشورات الثلاثينات.

كان هذا واضحاً عندما حدد عبد الناصر بهذا الخصوص «كانت مشاعري تتخذ شكل الأمل الغامض، ثم الفكرة المحددة وفي النهاية أصبحت فكرة عملية والإعداد لتطبيقها حتى منتصف ليلة الثاني والعشرين من يوليو» بالإضافة إلى هذه «المشاعر» التي تجسدت تدريجياً في عمل سياسي، أشار عبد الناصر إلى «تجاربه» والتي تتشكل من مشاركته في المظاهرات السياسية إبان الثلاثينات، وإنضمامه لعضوية بعض التنظيمات كما أشارت اللمحات السابقة، والمحور الرئيسي لهذه التجارب كان دوره النشط والفاعل في حرب فلسطين، وإرتباطه بإخوانه الضباط الذين شاركوا في حملة العداء لبريطانيا إبان الحرب العالمية الثانية، في ظل إلهام ونصائح الفريق عزيز المصري، واللواء صالح حرب باشا والذي أصبح رئيس جمعية الشبان المسلمين، وعلي ماهر باشا «الرجل القوي في السياسة المصرية، والأتاتوركي الطابع».

يمكن للمرء الإستدلال من هذه الإعترافات أن الضباط الأحرار لم يكن لهم أية أيديولوجية سياسية مشتركة، بل مجرد «مشاعر» مشتركة لعبد الناصر ورفاقه الضباط، والتي نزعت بهم تجاه آمال مبهمة، مثل أمل تخليص مصر من ربقة قيد الإرتباط ببريطانيا، أو أمل التعاون مع الأقطار العربية وزعامة مصر لهم بمجرد طرد الدول الإستعمارية من الشرق الأوسط. وبالمثل إشتركوا في نفس «التجارب» في إطار ومجريات الأحداث السياسية في مصر والتي دفعتهم للثورة.

لم تأتِ مشاعر وتجارب عبد الناصر ورفاقه الضباط من فراغ، بل كان هناك مصدران:

الأول، المزاج السياسي العام في مصر وبعض الأقطار العربية في الفترة (١٩٣٣ - ١٩٤٣)، والظروف الإجتماعية والإقتصادية التي ساعدت على خلقه.

الثاني، الحركات والتنظيمات السياسية النشطة إبان تلك الفترة.

على سبيل المثال، أكد عبد الناصر «آمنت بالجندية طيلة حياتي» وهو لا يعني حرفياً حياة الجنود بل يشير إلى الفكرة العسكرية في النضال الوطني، ومشاركته في النشاط السياسي العارم للثلاثينات، ومصطلح الجندية في حد ذاته، له مصدر خاص، ويستخدم أساساً، وبشكل محدد كما لدى جماعة مصر الفتاة.

يمكننا، بمراجعة منشورات مصر الفتاة المبكرة حول برنامجها وأهدافها؛ معرفة الدور الطليعي الذي تكرسه للجندية، أو لشباب مصر المقاتل، في النضال ضد بريطانيا، والوضع الراهن، وإستعادة مجد الأمة، وتوضح منشوراتها وتركيبها التنظيمي ولائحتها تعريف أعضائها بكونهم «جنود مصر»، وهذا التعريف ظل ملازماً لمصر الفتاة منذ عام ١٩٣٣ وعندما تحولت إلى حزب عام ١٩٣٨، وفي خطابها المفتوح للملك فاروق في يوليو ١٩٤٠ وعندما تحولت إلى حزب آخر، الحزب الوطني الإسلامي، أو مؤخراً عام ٤٩ - ١٩٥٠ عندما جعلت نفسها الحزب الإشتراكي، وهي تعرف الجندية بإعتبارها:

«نظام وأسلوب الحزب المفضل لتقوية عزيمة الشباب في نضالهم لتحقيق أهداف الحزب (مثل الإستقلال) وإقامة إمبراطورية مصرية تضم مصر والسودان، وبناء جيش وطني قوي، وتحقيق عدل إجتماعي مستمد من الإصلاح الزراعي، التصنيع والتمصير، وبناء سد عالٍ في إسوان، التعاون والتضامن مع الأقطار العربية، وحتمية الزعامة المصرية للعالم الإسلامي. . .».

في كتابه، ذكّر عبد الناصر قراءه مراراً أن يوم ٢٣ يوليو ليس حدثاً معزولاً، لكنه نهاية سلسلة من المحاولات العديدة لتحرير الوطن ولكنها فشلت في الماضي، إنه «تحقيق لأمل تعهده شعب مصر منذ زمن وحتى الفترة الحاضرة وبدأ يفكر في تقرير مصيره وحكمه لنفسه بذاته» وهكذا كانت المحاولة «عندما قاد عمر مكرم الحركة الشعبية لتنصيب محمد علي والياً على مصر (١٨٠٤ - ١٨٠٥). . ويوم طالب أحمد عرابي بالدستور عام ١٨٨١ - ١٨٨٢ . . . وثورة ١٩١٩ بقيادة سعد زغلول. . .».

لقد رفض عبد الناصر إعتبار أن الأسباب الحقيقية لثورة ١٩٥٢ تكمن في حرب

فلسطين وفضيحة الأسلحة الفاسدة، أو إنتخابات نادي الضباط عام ١٩٥١، ولكنه أكد أن «القضية أكثر تعقيداً وترجع لأسباب أعمق». فإنتخابات نادي الضباط، وحرب فلسطين وفضيحة الأسلحة الفاسدة، وسلوك وفضائح الملك في الأعوام ١٩٤٨ ـ ١٩٥٢، كلها عوامل سارعت وعجلت في وقوع الثورة؛ لكن عبد الناصر يذكر قراءه بأن بذور الثورة ترجع للوراء:

«يوم إكتشافي لبذور الثورة داخلي أسبق من يوم ٤ فبراير ١٩٤٢ حيث وقع حادث القصر؛ والذي كتبت عنه لأحد أصدقائي وقتها؛ «ما يحدث الآن هو ما حدث من قبل وتقبلناه بعبودية وإستسلام، حقيقة القضية أنني أعتقد بأن الإستعمار بيده ورقة يهددنا بها؛ لكن لو شعر بأن بعض المصريين ينوون التضحية بحياتهم ويواجهون القوة بالقوة سوف يتراجع مثل العاهرة» هكذا؛ فإن حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ الذي يرمز إلى إهانة بريطانيا للعرش المصري، وشكلت إنعكاساته أخطر جرح لطخ الشرف الوطني وكرامة كل المصريين؛ ووفقاً لرأي عبد الناصر كان له تأثير دائم على جيله من ضباط الجيش حيث زودهم بهدف وعزيمة جديدة «هذه الطعنة الغادرة أعادت الروح إلى بعض الأجساد وجعلتهم يدركون أن هناك كرامة ينبغي إستردادها والدفاع عنها. . .» ويواصل عبد الناصر تأكيده:

«حتى ذلك اليوم (٤ فبراير) كان أبعد من تلك الحماسة التي غمرتني عندما كنت طالباً يشارك في المظاهرات للمطالبة بعودة دستور ١٩٢٣ بدلاً من دستور ١٩٣٢. . . في تلك الأيام، عندما زرت مع وفد الطلاب منازل الزعماء نطلب منهم الإتحاد لأجل مصر (مشيراً إلى الجبهة الوطنية لأحزاب المعارضة عام ١٩٣٥، عندما كان عبد الناصر يقود فرع مصر الفتاة في باب الشعرية)».

إسترجع عبد الناصر ما كتبه يوم ٢ سبتمبر ١٩٣٥ إلى أحد أصدقائه، إرتباطاً بتلك الأحداث:

«بيت اليأس أساساته قوية؛ أين أولئك الذين يقدرون على هدمه؟» ومضى عبد الناصر يحدد «لم تكن بذور التمرد والثورة داخلي فقط؛ فلقد إكتشفت أنها في أعماق كثيرين. . .».

مع ذلك، أوضح عبد الناصر في كتابه أن بذور التمرد والثورة تلك لم تكن أكثر من «مشاعر» وليست أفكاراً واضحة تدعمها «الخبرات» فلقد كان جيله من الشباب «يحلم بمصر الحرة القوية» وعند مرحلة معينة إعتبروا أن أفضل طريق لتحقيق هذا الهدف هو «الحماس السياسي». «فلقد قدت المظاهرات عندما كنت طالباً في مدرسة النهضة» وفيها بعد:

«إقتنعت. . . بأن الإغتيال السياسي وسيلة مفيدة لتحقيق أهدافنا. . . وبنهاية الحرب العالمية الثانية وقبيلها بوقت وجيز. . . تحركنا؛ كجيل بأكمله تجاه تبني العنف» ويسترجع عبد الناصر تلك الفترة «كانت حياتنا في تلك الفترة تحاكي قصة بوليسية مثيرة، كنا نتكتم أسراراً كبيرة، ونختلق كلمات رمزية، ونتخفى في الظلام، ونخبيء المسدسات والقنابل اليدوية».

من الواضح أن خيالات العنف وأوهامه، والأعمال الملهمة لتخليص مصر من مستعمريها جاءت في إطار نسيج فترة إنتشار إستخدام العنف لأهداف سياسية. لكن عبد الناصر يعترف «شعرت بالحيرة، وكنت مشوشاً. . .» فلقد ظلت مشاعره الوطنية متناقضة، الإيمان بالعقيدة الدينية، وإختلاط الرحمة بالقسوة؛ ومع ذلك يوضح بأنه تمتلكه فكرة القيام بأي عمل، ضد السلطة، وبرر إستخدام العنف لتحقيق أهداف وطنية بقوله: «كانت دوافعي لصالح وطني».

بإختصار، في كتاب عبد الناصر لمحة عن تكوينه السياسي المبكر هو وزملاءه في فترة العنف السياسي، عندما ساءت العلاقات مع بريطانيا؛ بينما إزدادت حدة الإستقطاب كلما تعمقت مشاعر العداء ضد بريطانيا، والأجانب والنظام القائم. وبقدوم عام ١٩٤٥، تفجر العداء بين مؤسسات الحكم والنخبة الحاكمة للبلاد، وبين أولئك الذين يرغبون في مزيد من المشاركة في إدارة الشؤون العامة، والذين مثلوا جيلاً جديداً ترعرع ونشأ وهو يرفع شعار «يا عزيز. . . كبّة تأخذ الإنجليز»(*)؛ هكذا، فإن سبب عجز عبد الناصر عن شرح ومناقشة «فلسفة الثورة» بمفاهيم مجردة كان بسبب «كنت أنا نفسي، في تيار عنف الثورة».

يعتبر التداخل بين الأحداث التاريخية وتواريخ الحياة أحد الهموم الشائكة للتاريخ السياسي والسير التاريخية؛ لكنه ربما يسهم بشيء في تفسير التشوش والتناقض الذي أظهره عبد الناصر في كتابه؛ وربما من السهل أن يعزوها المرء إلى أزمة الشخصية الذاتية «في تلك الفترة الحرجة من حياة الشباب» بينما كانت التوترات تتزايد حدتها في مصر إبان الثلاثينات بالتغير السريع وفي المعاناة من مصاعب إقتصادية، وعدم إستقرار إجتماعي، وإضطراب سياسي، وإزدواجية ثقافية. ويمكن للمرء أيضاً مناقشة أزمة الهوية التي طبعت جيل عبد الناصر، ذلك الجيل الذي وصل إلى السلطة عام ١٩٥٢، وأولئك الذين برزوا في الحياة العامة فترة ما بعد سقوط الملكية في مصر، وطبعت أيضاً نفس الجيل في باقي الأقطار العربية، وما قد أشار إليه عبد الناصر في منتصف الخمسينات، بإعتباره «مصير الأمة» ربما

(*) أحد الهتافات الشعبية ضد المستعمر البريطاني، ويعني الموت للمستعمر.

يكـون إمتداداً للتعبير عن بحثهم لإيجاد تعـايش بين الهـوية الشخصيـة والحضـاريـة، حيث يـدفعهم جانب إلى الـراديكاليـة كأفـراد يستغرقهم النشـاط السري والعنف السيـاسي؛ بينـما يستحثهم الآخر على رفض الماضي بكل روابطه المحلية والأجنبية.

كان القلق الأيديولوجي الذي عاناه عبد الناصر في تلك الفترة غير منقطع الصلة بتـوتر علاقاته العائلية، خصوصاً علاقته بوالده، وعدم تيقنه من خططه لمرحلة ما بعـد المدرسـة، وعضويته في حركة مهمومة بالقيم المصرية والإسلامية، والسلطة السياسية، وهـذا ليس أمراً استثنائياً لأنـه يسمح بـالتعايش بـين أزمة مـرحلة شباب عبـد الناصر والأحـداث الجاريـة في مصر. فلقد أصبحت الراديكالية السياسية في الثلاثينات مصدر جذب أيديولـوجي، وبديـلا مطروحاً للعبودية السياسية لأولئك الباحثين عن حل لمشـاكلهم، وإستمدت جـاذبيتها جـزئياً من أزمة هويتهم. وكانت جماعـة مصر الفتاة، والإخـوان المسلمين وبـاقي المنظمات الـطلابية ذات جاذبية خصوصاً للشباب الطموح الحساس مثل عبد الناصر، الذي إفتقـد خطة معينـة لنفسه.

لقد أتاحت أيـديولـوجيات مصر الفتـاة والإخوان المسلمـين لأعضائهـا الذين في عمـر عبد الناصر ما يطلق عليه أريك إريكسون «إجابـات مبسطة محـددة ملائمـة لحالـة الغموض الـداخـلي، وتلك الأسئلة الملحـة التي إنبثقت كنتيجـة للصراع الـداخـلي»، وكـانت وسيلة الخـلاص والتحرر بـالنسبة لأحمـد حسين المؤسس المشـارك ورئيس جماعـة مصر الفتـاة؛ كـما سنـرى، هي إحتراف التمثيـل؛ ولكنه فشـل مـرتـين في الإلتحـاق بـالمسرح وأداء أي دور، فإعتنق العمل السياسي من خلال كلية الحقوق، وكان قد أصابه اليأس من عدم محالفة الحظ له، ووصل إلى حالة من القنوط، وخشي ألا يصبح شيئـاً ذا قيمة، وأكـدت الحدة والحـماس الـذي كرس بهـا نفسه في النشـاط السياسي أثنـاء فترة دراستـه بكليـة الحقـوق حقيقـة هـذا الخوف، لكنه ساعده على خلق عالمه الذي عـاشه ومـارسه طيلة حيـاته، فلقـد كرس نفسـه وحياته لإعادة تشكيل عقول أتباعه الشباب.

وكانت وسيلة التحرر والخلاص عند عبد الناصر هي الحيـاة العسكريـة، والتي أتاحت له الإيمان بشخصيته وصقلها كما كانت تفعل جماعة مصر الفتاة شبه العسكرية، وفوق ذلك، فـإن أي وظيفـة عسكـريـة ستضعـه في مـرتبـة إجتـماعيـة أعـلى من وضـع والـده في السلم الإجتماعي، وإستطاع قهر عزلتـه الإجتماعيـة المبكرة عن النمط الـطبيعي للمجتمع في بـداية الثلاثينات وجفاء والده له، من خلال طريق بعث حيويته الذي أتاحته له جماعـة مصر الفتاة الراديكالية، والتي عمقت وعيه الوطني بمصريته، وبالإضافة إلى الكلية الحربية، ساعدتـه فيما بعـد على إعـادة بناء وتكـوين هويتـه الشخصيـة. ومـع ذلـك، يبقى دافعـه لإختيـار المهنـة

العسكرية أكثر تعقيداً، فالعديد من رفاق جيله إختاروا الجندية لأسباب عملية جداً لتأمين وضعهم المادي؛ والمظهر الإجتماعي والممارسة السياسية المحتملة.

من المثير ملاحظة أن عبد الناصر عندما فشل في الإلتحاق بالكلية الحربية أو كلية البوليس عام ١٩٣٦، إلتحق لفترة وجيزة بكلية الحقوق في جامعة القاهرة، وعندما حانت له فرصة ثانية لدخول الحربية إغتنمها متلهفاً، مجسداً حاجة عميقة للإنتظام في معهد يتسم بالإنضباط والقوة، وعلاقات هرمية للقيادة والتبعية، ويبدو أن عضويته في مصر الفتاة وإلتحاقه بالكلية الحربية لم يزعزع رغبة عبد الناصر في التخفي والتكتم، تلك النزعات التي ظلت واضحة في شخصيته حتى عامي ٥٢ ـ ١٩٥٣، والتي تجسد طابعاً صارماً وعنيداً ودؤوباً في التركيز على وسائل تحقيق أهداف عملية، وتحقيق الطموح الشديد.

هذه ليست أزمة عبد الناصر وحده، بل كانت شائعة وعامة بين رفاق جيله، الذين شعروا بالحاجة لنسق أفكار يوفر لهم بديلاً مقنعاً. فلم تكن أزمة الهوية لدى الشباب المصري في الثلاثينات مرتبطة فقط بحاجاتهم الأيديولوجية؛ بل أيضاً بقلقهم الجنسي في مجتمع لا يعترف بالإختلاط بين الجنسين، ولقد عبرت الرواية المصرية عن هذه المشكلة خصوصاً كتابات توفيق الحكيم ونجيب محفوظ؛ وصورت تغير الأذواق وأساليب الحياة للطبقة البرجوازية الدنيا؛ التي ينتمي إليها عبد الناصر ومعظم جيله من ضباط الجيش. ولقد قدم أحمد حسين وجماعته مصر الفتاة والإخوان المسلمين وبعض الجماعات الماركسية بعض الأسس السياسية وإتجاهات هذا التغيير.

طالما أن سيرة حياة عبد الناصر تعكس سيرة جيله بمعاناته وهمومه وآماله وصراعاته، فمن الضروري تقديم صورة سياسية له. فلقد تلاقت هويته وإرادته بآمال عامة وشعبية وطموحات وطنية، لذا فهو يعكس العصر الذي ينتمي إليه، فلقد إنطلق هو ورفاقه من خلف حجب وأستار عملهم السري، ليطيحوا عام ١٩٥٢ بالنظام السياسي القديم، الذي طالما تجاهلهم ورفضهم طويلاً؛ والذي لم يعد ممثلوه مقبولين بإعتبارهم الحكام الصالحين للبلاد. ولقد إجتذبتهم مصر الفتاة جزئياً بسبب البرنامج الضخم لزعيمها: سد عالٍ في أسوان، التصنيع، تأميم قناة السويس، الإصلاح الزراعي، إعادة توزيع الثروة، الإستقلال التام عن بريطانيا. فلقد كان البرجوازيون الصغار في القاهرة والاسكندرية على حافة هاوية اليأس المطبق من جراء الكساد وحتى نشوب الحرب العالمية الثانية، ولقد كان عبد الناصر مثل أحمد حسين قبله، قادراً على التواصل معهم على مستوى السخط العام واليأس والطموح، يشاركهم مشاعرهم، وكانت غالبية الشعب المصري مستعدة للتجاوب معه؛ فلقد وعدهم بالكرامة وإحترام الذات والإنتقام.

تشكل الفترة من ١٩٣٣ حتى ١٩٣٦، إذن، مفترق طرق ونقطة تحول في تاريخ مصر المعاصر، فلقد أصبحت جماعة الطلاب، كما سبق وأوضحنا، جماعة متميزة نشطة سياسياً، وتشكل فكرهم السياسي عبر كتابات عباس العقاد عن أبطال التاريخ الإسلامي، وكتابات توفيق الحكيم عن الأساطير الفرعونية، وخطب أحمد حسين الحماسية؛ والذي أكد على ضرورة إعادة بناء مصر القوية: كل شباب مصر يمكنهم أن يصبحوا أبطالاً ويغيرون الأحداث. ولقد كانت المحاولة الخطيرة الوحيدة لإقتلاع السياسة المصرية وتخليصها من تقاليدها الإسلامية لمجتمعها على يد إسماعيل صدقي (١٩٣٠ ـ ١٩٣٣) والتي إنتهت به إلى حكم إستبدادي مطلق وفجرت ردود فعل عاصفة وعودة للتمسك بالصيغ الوطنية الإسلامية والشعبية والتي جسدها في البداية حزب الوفد، ثم طورها الإخوان المسلمون ومصر الفتاة وإكتملت على يد عبد الناصر.

كانت مصر الفتاة هي المصدر الذي تلقى فيه عبد الناصر تعليمه السياسي المبكر؛ ويبدو واضحاً أنه إنضم إليها عام ١٩٣٤ أو ١٩٣٥ عندما كان طالباً في مدرسة النهضة؛ وإسترجع عبد الناصر في خطاب إفتتاح مجلس الأمة يوم ٢٢ يوليو ١٩٥٧، تلك الفترة:

«في أعوام التكوين كانت كل الأحزاب تعمل من أجل تحرير الشعب المصري، كان هذا يستهويني، وإنضممت إلى مصر الفتاة، لكنني تركتها بعد أن أدركت أنها رغم أهدافها فإنها لم تحقق شيئاً محدداً» لكنه ذكر إجتذابه لبرنامجها الإقتصادي والإصلاحي الإجتماعي بما فيه المطالبة بتأميم قناة السويس، ولقد سجلت تقارير البوليس السياسي بقاء عبد الناصر عضواً بمصر الفتاة حتى عام ١٩٣٨، عندما كانت تقوم بالتحقيقات حول محاولة إغتيال النحاس باشا، زعيم الوفد، والتي قام بها عضو مصر الفتاة «عز الدين عبد القادر» في ٢٨ نوفمبر ١٩٣٧؛ ويتضمن التقرير المحفوظ بالمحكمة العليا برقم ١٤٣/ ١٩٣٨ إسم جمال عبد الناصر حسين العضو رقم ٢٠، وعنوانه «خميس العدس ـ الخرنفش ـ مكتب البريد، القاهرة» حيث كان يقيم عمه خليل الذي كان يعيش معه عبد الناصر أثناء دراسته، وجاءت أسماء أعضاء آخرين في الملف السابق منهم محمد أنور السادات، حسن عزت، وجيه أباظه، وكلهم أصبحوا ضباطاً أحراراً وكلهم إلتحقوا بالكلية الحربية عام ١٩٣٧.

القصة الشائعة والمقبولة حول إلتحاق عبد الناصر بالكلية الحربية، مفادها أنه لم يقبل في المرة الأولى لأصوله الإجتماعية غير الملائمة؛ ويعتقد أيضاً أنه في المرة الثانية لتقدمه للكلية تدخل لصالحه أصدقاء مؤثرون. ويجب ملاحظة، أن عبد الناصر تقدم للإلتحاق بالحربية إبان وجود حزب الوفد الليبرالي في الحكم؛ ولكن الأمر الذي لم يكن شائعاً هو حقيقة محاولة مصر الفتاة إدخال بعض أعضائها للكلية الحربية، منذ تأسيس الجماعة عام ١٩٣٣.

يقـول أحمد حسـين في خطاب لـلإجابـة عـلى سؤال للسيد م. كـويـيـتز من مـدرسـة الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن، مؤرخ في ١٩ فبراير ١٩٧٣:

«كان جمال عبد الناصر أحد أول كوادرنا الذين دخلو الكلية الحربيـة، متأثـراً بأفكـارنا وكان ممكناً أن لديه خطط سياسيـة طموحـة. . . وكان ضمن الضبـاط الأحرار الـذين قامـوا بثورة يوليو ١٩٥٢، حسين إبراهيم عضو مصر الفتاة بالاسكندرية، أنور السادات الذي كان على إتصال مستمر بمصر الفتاة طيلة نضاله السياسي وكان وثيق الصلة بعضوي جماعتنا حسن عزت، وجمال عبد الناصر اللذين كانا في القمصان الخضر. . .».

كـانت اللجنة التنفيـذية لجـماعة مصر الفتـاة معروفـة بـ «مجلس الجهـاد» وكـان ضمن مستشاريها والذين يدعمونها مالياً، السياسي البارز علي ماهر، محمد علي علوبة، عبد الرحمن عزام، بهي الدين بركات، عبد السلام الشاذلي، اللواء صالح حرب، مصـطفى الشوربجي، وآخرون، وإعتبر الفريق عزيز علي المصري، الـوثيق الصلة بعلي مـاهر، والـذي أصبح فيـما بعد مفتشاً عاماً لهيئة أركان الجيش المصري، رئيساً شرفياً لجـماعة مصر الفتـاة. بينما تـرأسها فعلياً أحمد حسين، والذي ظل وثيق الصلة بعلي ماهر طيلة حياته السياسية، بينما كان الفريق عزيز المصري واللواء صالح حرب المعاديين لبريطانيا، يحظيان بتأثير داخل الجيش المصري.

يحـدد أول بيـانـات مصر الفتـاة المنشـور في ٢١ اكتـوبـر ١٩٣٣، بـرنـامـج الجمعيـة وأهدافها، وأيضاً في كتاباته الأخرى طالب أحمد حسين دائمـاً بتوسيـع الجنديـة في المجتمع، وحث المصريـين لـلإنضـمام للجيش؛ وفي ٢٤ ينـايـر ١٩٣٤ نشر في جـريـدة مصر الفتـاة «الصرخـة» العدد ١٧، خـطاباً مفتـوحاً إلى وزيـر الحربيـة مهـاجمـاً تنـظيم الجيش وسيـطرة البريطانيين عليه الذين يريـدون إبقاءه ضعيفـاً. وطالب بتخفيض سنـوات التجنيد والخـدمة العسكرية من خمس سنوات إلى عام واحد ليتاح لعـدد أكبر من المصريـين الإنضمام للجيش، وأرفق بخطابه التماساً وقعه خمسون شاباً يطلبون الإنضـمام للجيش. وأدى هذا الخـطاب إلى إعتقاله ومحاكمته في أبريل ١٩٣٤.

توضح كتابات أحمد حسين الأخرى إهتمام الجـماعة بتـوفير أمـاكن لأعضائهـا في الكلية الحربية. وكانت اللجنة التنفيذية مهتمة بالتغلغـل في المؤسسة العسكـرية ومحـاولة إستقـطاب وتجنيد أعضاء أكثر، وكان عـلي ماهـر بموقعـه في القصر متهماً هـو الآخر بـإستخدام الجـماعة وأعضائها العسكريين للنضال ضد الوفد، وكـان أوثق معاونيـه في هذه المهمـة الفريق عـزيز المصري واللواء صالح حـرب. وإستفادت الجـماعة من تـأثير الـرجال الثـلاثة لضـمان إختيار بعض أعضائها لـلإلتحاق بـالكلية الحـربية. في عـام ١٩٣٧، تمكن أربعة أعضـاء من مصر

الفتاة من دخول الكلية الحربية هم، جمال عبد الناصر، أنور السادات، حسن عزت، وجيه أباظه، بصرف النظر عما إذا كان نجاحهم في دخول الحربية بسبب جهود الجماعة أم لا.

هكذا، لم يبدأ عبد الناصر ورفاقه خدمتهم وحياتهم العسكرية وهم مفتقرون للفكر السياسي أو الإنتماء، وفي الأعوام التالية، كان حسن عزت وأنور السادات أكثر تورطاً في المغامرات والمتاعب وربما الجرائم من عبد الناصر. مع ذلك تبقى حقيقة أن الفترة التالية لعام ١٩٤٥ شهدت إلتقاء الأفكار المشتركة، والكراهية والنزعة للعنف التي ألهمت بها مصر الفتاة هؤلاء الشباب، ليتجمعوا معاً مرة ثانية. وبعد إنخراطهم في إتجاهات مختلفة، إلتقوا ليقوموا بثورتهم في ٢٣ يوليو ١٩٥٢؛ لكنهم ظلوا متمسكين بالعديد من أهداف ومفاهيم وصيغ مصر الفتاة.

بالإضافة إلى المعلومات الوفيرة عن الوضع السياسي في مصر إبان الأعوام ١٩٣٣ - ١٩٤٣ والتي يمكن إستخلاصها من الوثائق البريطانية الرسمية، خصوصاً المتعلقة بحركات الشباب والطلاب، تقدم كتابات مؤسس مصر الفتاة كماً وفيراً منذ تلك الفترة وحتى عام ١٩٧١، لكن الغريب في كتاباته والمدهش ذلك التشابه المذهل في الاسلوب والتبرير والصيغ والقناعات بين حركة مصر الفتاة وتنظيم الضباط الأحرار، وحتى خطب عبد الناصر بعد الثورة.

بدون إفتراض أن عبد الناصر ورفاقه قد إكتسبوا كل أفكارهم السياسية وخططهم السياسية من مصر الفتاة، وبالمثل كل آرائهم عن السلطة وطريقهم إليها، وموقفهم من بريطانيا وأوروبا والغرب، والعرب والعالم، وتناولهم لقضية مصر الوطنية، لكن بالفحص الدقيق تبدو وثيقة الإرتباط بأفكار مصر الفتاة، لدرجة أن مفهوم البطولة وإعادة بناء مصر سياسياً الذي عبر عنه عبد الناصر وجسده في ثورته، يبدو شبيهاً بما طرحه أحمد حسين في كتاباته المبكرة ونشاطه السياسي طيلة أربعين عاماً؛ أو كيف يمكن للمرء أن يتجاهل حقيقة أن العديد من أعضاء مصر الفتاة البارزين قد تولوا مواقع هامة في الدولة بعد ثورة يوليو ١٩٥٢.

في إطار مسار تطور حركة الضباط الأحرار وعبر مراحلها المختلفة من ١٩٣٩ وحتى ١٩٥٢، كان أعضاؤها البارزون خصوصاً في القوات الجوية من أعضاء مصر الفتاة؛ وهناك أدلة كافية على الروابط الوثيقة بين جيل عبد الناصر من الضباط وجماعة مصر الفتاة، وليس معنى هذا أن نقول بعدم وجود روابط جديدة لهم مع الجماعات الأخرى مثل الإخوان المسلمين، وتنظيم حدتو الماركسي، والطليعة الوفدية، أو الأحزاب الأخرى. لكن أعمق

ن روابطهم كانت مع مصر الفتاة المتطرفة وطنياً وإسلامياً، المعادية لبريطانيا، والإخوان ـمين والحزب الوطني.

عندما يبحث المرء عن مقدمات وجذور أفكار عبد الناصر القومية العربية والإشتراكية ـبية، والإصلاح الزراعي والتعاونيات الزراعية، والتصنيع وبناء جيش وطني قوي، اء الإمتيازات والفوارق بين الطبقات، وأفكاره عن التعليم العالي المجاني، سنجدها في ت أحمد حسين وبالمثل، المشاركة في حملات الإغتيال والتفجير في أعوام ٤٤ ـ ١٩٥٢، قام بها ضباط نظمتهم مصر الفتاة، والإخوان المسلمون والحزب الوطني، وهذا دليل في على العلاقة بين الجماعة وثورة يوليو. فلقد طالب أحمد حسين صراحة في مقالاته ـزعة عامي ١٩٥١ ـ ١٩٥٢ بالإطاحة بالنظام، وكان ذروة التعبير عن الحملة التي شنتها ـماعات المعارضة في البلاد، بما فيها الضباط الأحرار بمنشوراتهم السرية ضد الملك ـكم.

بطريقة معينة كان أحمد حسين نموذجاً للشاب المصري الغاضب الذي يتمرد ويثور على ـع الراهن في بداية الثلاثينات، ولقد كان هو وحركته يلقيان دعم علي ماهر ويوظفها ـاضه، ومعه آخرون معادون لبريطانيا. وعندما كان علي ماهر موالياً للمحور وهو رئيس اء ٣٩ ـ ١٩٤٠، وبالمثل كان الفريق عزيز المصري؛ اللذان اعتبرا موضع مشورة وحماية ـ الفتاة وأعضاء الضباط الأحرار، بل وقد تورط الفريق عزيز المصري في أنشطة تخريبية ـسية ضد الحلفاء في أعوام ٤٠ ـ ١٩٤٢.

لذا، من الضروري لتناول مصادر الإتجاهات السياسية لجيل عبد الناصر وطموحاته، ل مرحلة أحمد حسين وظاهرة الراديكالية الجديدة والرومانسية الراديكالية، في تاريخ مصر ياسي المعاصر، كما تجسدت في مصر الفتاة، والإخوان المسلمين.

الفصل الثالث

جماعة مصر الفتاة

«هناك أشخاص خلقوا ليكونوا مرآة لمجتمعاتهم» .

جاكوب بوركهارد

«حضارة عصر النهضة في ايطاليا»

في كتابه «نصف قرن مع العروبة» المنشور في صيدا عام ١٩٧١؛ أشار أحمد حسين إلى الفترة المبكرة للجماعة ١٩٣٣ ـ ١٩٣٥؛ والتي أعتقلت أثناءها الحكومة أعضاءها لسبب أو لآخر «إبان تلك الفترة إنضم جمال عبد الناصر إلى جماعة مصر الفتاة، وكما ذكر بنفسه كانت هي مدرسته الأولى في الحياة العامة». وفي كتابه الأول «إيماني» المنشور في القاهرة عام ١٩٣٦؛ وضع أحمد حسين قائمة بأعضاء الجماعة الذين إعتقلتهم الحكومة بسبب نشاطهم السياسي في مصر الفتاة من أكتوبر ١٩٣٣ وحتى أكتوبر ١٩٣٤، وعنون القائمة بـ «صفحة مجد وفخر لجنود مصر الفتاة: خمسون في السجن خلال عام والمئات تعرضت منازلهم للتفتيش والتحقيق معهم» وكان الرقم «٤٨» في تلك القائمة «جمال الدين ناصر» وقد يكون هو جمال عبد الناصر، فلقد كان شائعاً بين الشباب المصري وقتها إعطاء إختصار لأسمائهم: إسمه وإسم والده، وبعد ذلك يكتفى بذكر إسم العائلة.

يعتبر كتاب أحمد حسين «إيماني» وثيقة خطيرة لفهم المصاعب الشخصية والإجتماعية التي واجهت جيل عبد الناصر، ولقد أهدى أحمد حسين كتابه إلى «رمز الجيل الجديد وطليعة المجد، فاروق» ووضعت صورة أحمد حسين على صفحة الغلاف الداخلي مرتدياً الزي الرسمي الكامل للجماعة (القميص الأخضر، الشورت الكاكي، الحذاء الطويل والشارة على الذراع) وشعار الجماعة «الله، الوطن، الملك»، وكانت صورة أحمد حسين تظهر حيويته وتصميمه، وخلال صفحات كتابه إستخدم كلمات العقيدة، الإيمان، الشهادة، العقيدة الراسخة وكلها إشتقاق ومصادر لكلمة الإيمان.

في البداية، إفترض أحمد حسين أن حماسه الوطني كان ثمرة «لإهتدائه» أثناء جولة كشفية في الصعيد ـ وادي الملوك والكرنك في الأقصر، وسد أسوان وكوم إمبو ـ ونادى بالحماس الوطني لإحياء مصر وبعث حضارتها الفرعونية، وكانت حجته بسيطة، طالما كان أجدادنا قادرين على تحقيق تلك الحضارة العظيمة والقوة الهائلة، إذن فنحن قادرون على تحقيقها. والمطلوب هو المعرفة، التنظيم العسكري، الطموح والمشاعر القوية «شعرت بأنني أولد من جديد، في ذلك اليوم من ديسمبر ١٩٢٨، حدث تحول في حياتي ودخولي عالماً

جديداً . . . فلقد وقعت في حب مصر . . . وأصبحت الحياة لا قيمة لها بدون الكرامة الوطنية والعزة» وهذه الكلمات مألوفة ومفضلة لدى عبد الناصر عندما أصبح في السلطة: «العزة والكرامة».

إذن، لقد إستمد أحمد حسين إلهام عمله الوطني من التراث القديم المحنط وإستغرقته أفكار القوة والعظمة وتخيل الإنتصارات العسكرية للمصريين القدماء وإعتقد بإمكانية تكرارها في القرن العشرين وأصبحت مسحة التوهم والحنين للماضي وللقوة والثراء والعظمة هي مفتاح حل أزمة فترة شباب أحمد حسين وأزمة هويته. وأصبح الحماس وإثارة المشاعر هي العلاقات المميزة لسيرته السياسية، وهكذا تبنى فكرة حشد الجماهير مرتدية أزياء موحدة، للشباب شبه العسكري، وإثارة المشاعر الوطنية والفخر بمجد مصر، وترديد التحية للأعلام، وتحريض المتمردين.

يجب تناول إعتراف أحمد حسين بتحول أسلوب حياته بشكل مفاجىء في طريقه إلى الكرنك، وإنعكاسه على قدراته الخطابية في إطار نشاطاته المسرحية في المدرسة الخديوية:

«كنت مولعاً بالتمثيل، ورئيساً لجماعة الدراما في المدرسة الخديوية، وكنت أعشق المسرح» وادعى أنه قد «بعث» للحياة في الكرنك «ويجب أن يبعث كل شباب مصر». لكن ماذا يجب أن يفعلوه لإستعادة أمجاد الماضي؟ يجب أن يؤمنوا بمصر وإمكانياتها؛ لكن الإيمان بدون برنامج، عملاً ليس كافياً؛ وإقترح أحمد حسين خطوطاً عريضة كإطار عمل مشابهة للبرنامج اللاحق لتنظيم الضباط الأحرار، مثل بناء سد عالٍ في أسوان لتوليد الطاقة الكهربائية المطلوبة للتصنيع في مصر؛ لكن بريطانيا قد أفسدت المصريين وغرست الشك في قدراتهم. «رجعت من زيارتي لأسوان مشحوناً بالغضب ضد الإحتلال البريطاني وحكوماتنا الضعيفة وأفكر أن مصر كلها ستصبح فعلاً . . . في المستقبل».

أثناء زيارته لمصانع السكر في كوم إمبو صدم أحمد حسين بالإحتكار الأجنبي وسيطرته على هذه الصناعة وكتب:

«المستعمر الأجنبي يجسد دولة داخل الدولة تستعبد آلاف الفلاحين . . . وهم يكسبون كل شيء حتى الأرض التي هي ملكنا والتي كنا نزرعها منذ آلاف السنين . . . وتحت الإحتلال والسيطرة الأجنبية يفرضون السخرة علينا لخدمتهم . . . لماذا لا توزع الأراضي على الفلاحين الفقراء . . . لماذا يجب على هؤلاء الفلاحين العمل لخدمة الأجنبي».

وبهذه المناسبة، خاطب أحمد حسين زملاءه مرتجلاً بحماس متقد ضد الأجانب،

وحرضهم على القتال لتحرير وطنهم، مثل عبد الناصر بعد عشرين عاماً، كان شيئاً هاماً جداً بالنسبة لأحمد حسين أن يكتشف كونه خطيباً.

كانت أفكار ومشاعر عبد الناصر وجيله تدور حول: إحياء مجد مصر، التحرر من ربقة الإحتلال، تحسين أوضاع الحياة للفلاحين بإجراء الإصلاح الزراعي وتوزيع أكثر عدلاً للثروة، والتصنيع، وبالمثل كانت دعوة أحمد حسين لكل الشباب المصري للتعرف والإلمام بتاريخ بلادهم وحضارتها وماضيها المجيد، لم تكن مواجهة للتأثير الأجنبي فقط، بل تمهيد لنهوض سياسي «حتى لا ينشأوا على الإعتقاد بأن الحياة ليست أكثر من الطعام والشراب، والنوم».

كان أحمد حسين مثل عبد الناصر يتلمس وسائله لنشر الوطنية وغرسها في الشباب والإرتفاع بمستواهم الأخلاقي وإطلاق طاقتهم وقوتهم، وكان واضحاً أنهما يوجهان جهودهما للجيل الجديد، وهكذا كانت منظمة القمصان الخضر تستهدف أولياً تعليم الشباب حب وطنهم، والإيمان بعظمته، وبتأثير الحياة شبه العسكرية بأناشيدها وإستعراضاتها ستساعد على بعث الأمة.

ويكشف تاريخ حياة أحمد حسين المصاعب التي واجهت عبد الناصر وجيله، وتفسر بعض ميول وقناعات ومفاهيم هذا الجيل، فلقد ولد أحمد حسين في القاهرة مارس ١٩١١ قبل ميلاد عبد الناصر بسبعة أعوام فقط، وكان تعليمه الأولي في المدارس الخيرية الإسلامية، في عمر الثامنة عام ١٩١٩ كان قد سمع عن بطولات الألمان في الحرب العالمية الأولى، وادعى أنه قد شارك في مظاهرات ثورة ١٩١٩ التي خرجت من مسجد إبن طاهر، لكن خياله المبكر كان خصباً عندما عزم على شن غارات على المدينة، في نفس العام رسب ثلاث مرات، وأجبر والده على نقله إلى مدرسة حكومية. في مدرسة محمد علي، حيث إلتقى فتحي رضوان، وإلتحقا معاً بعد ذلك بكلية الحقوق وأسسا جماعة مصر الفتاة وأصدرا صحيفتها؛ ويزعم أحمد حسين أنهما بدآ معاً أول نشاطهم السياسي حيث أسسا معاً في مدرسة محمد علي «جماعة نصرة الإسلام» حيث كتبا المنشورات ووزعاها، بتشجيع مدرس الدين، لكن ناظر المدرسة منعهما من إستمرار نشاطهما وتصعيده، في عمر الثالثة عشر في عام ١٩٢٤، عندما أصبح سعد زغلول رئيساً للوزارة، قاموا بإضراب إحتجاجاً على تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢.

هكذا إنتهت أولى جولاته في النشاط الإجتماعي، وبدأت مرحلة دراسته الثانوية وإنغماسه الكامل بالإهتمامات الدرامية، وتابع تدريبات وعروض فرقة تطوير المسرح العربي، وتأثر كثيراً بهاملت وغالباً ما أدى دوره في غرفته بمنزله، وتأثر بمحمود مراد الذي كان يؤلف

مسرحيات وطنية، وأوبريتات ومسرحيات غنائية عن تاريخ مصر الفرعوني، على سبيل المثال، «أمجاد رمسيس» والتي يقول عنها أحمد حسين: «بعثت أرواحنا وملأتنا بالحماس والقوة» وكتب محمود مراد أيضاً مسرحية عن «توت عنخ آمون» والذي إكتشفت مقبرته عام ١٩٢٢ - ١٩٢٤.

أكد أحمد حسين أنه التحق بالمدرسة الخديوية جزئياً بسبب وجود أفضل جماعة دراما بها، وقام بأداء دور رمسيس في مسرحية محمود مراد «توت عنخ آمون» وإعترف أحمد حسين «لقد إستهواني التمثيل تماماً»، في العام الدراسي الثالث في المرحلة الثانوية، أكد أحمد حسين «لم أفعل شيئاً سوى التمثيل وإخراج مسرحية كتبتها عن أبي مسلم الخراساني» وقرر إحتراف التمثيل المسرحي، لكن آماله في هذا الإتجاه تلاشت، فلقد فشل مرتين في الإلتحاق بمعهد التمثيل، ولم يحصل على وظيفة في فرقة مسرح رمسيس، كان الجرح نافذاً لأعماقه. «كان الفشل إهانة لكرامتي مما أثارني ودفعني للإنشقاق لأن التمثيل كان كل شيء في حياتي» وكأفضل بديل إختار الحصول على البكالوريا والتقدم لكلية الحقوق.

إعترف أحمد حسين نفسه أن فشله في الإلتحاق بمعهد التمثيل شكل مفترق طرق في مسيرة حياته، ونقطة تحول من التمثيل على خشبة المسرح، إتجه للتمثيل من أجل تحرير مصر، وإلتحق بمجلة المدرسة وجماعة المناظرة؛ وفي العام الدراسي الأخير ١٩٢٧ - ١٩٢٨ سافر في جولة كشفية إلى صعيد مصر؛ وبالتالي وقع تحوله وإهتداؤه؛ حيث تملكته فكرة «كيف نبعث مجد مصر، وكيف نعيد الحياة للبلاد وتحويل ضعفها إلى قوة واليأس إلى أمل؛ بإختصار، كيف نحول مصر من العبودية إلى السيادة».

قرأ أحمد حسين التاريخ المصري والإسلامي الذي يقول عنه:

«خلافاً للمسيحية، يعلمنا الإسلام القوة ودور مصر المركزي والقيادي فيه، فهي التي قادت الثورة ضد الخليفة الثالث عثمان بن عفان، واستقلت بعد ذلك، تحت حكم إبن طولون. . . لقد رأيت كيف كانت مصر قادرة على تدمير كل الغزاة والإنتصار عليهم في النهاية بتحويلهم إلى مصريين دماً، وروحاً وفكراً».

فلقد رأى أن محمد علي الكبير (١٨٠٥ - ١٨٤٩) أكثر الشخصيات المؤثرة؛ وإعترف بتأثيره الهائل على المفاهيم التاريخية، لكنه أدرك أيضاً أن خطط محمد علي الإمبراطورية قد أجهضتها بريطانيا.

«لولا بريطانيا لكان لدينا إمبراطورية» كل هذا أشعر أحمد حسين بالمرارة، وشعر بالقهر، لكنه أصبح أكثر تصميماً على تنوير الجيل الناشىء بتاريخ مصر المجيد.

أثناء دراسته بكلية الحقوق، إدعى أحمد حسين أنه قد حلل عوامل ضعف مصر المعاصرة، مثل الجهل، وإكتشف أن التدهور الديني مستمد من الجهل، وبالمثل التدهور الوطني. وهناك عوامل أخرى مثل إحتكار وسيطرة الأجانب على الأعمال والصناعة، والتضخم البيروقراطي، وسوء توزيع الثروة الذي يفقر الفلاحين، لكن أخطر العوامل هو الإحتلال البريطاني وسيطرته على السياسة المصرية. في نفس الوقت، تأثر أحمد حسين منبهراً «بنضال إيطاليا» وحث المصريين على العمل.

في الشهور الأخيرة له بالمدرسة الثانوية، كتب أحمد حسين سلسلة مقالات في مجلة المدرسة بعنوان «رسالتي» (المجلد ٨، رقم ١، ديسمبر ١٩٢٨) إدعى أحمد حسين أنه قد رأى فيها بذور مصر الفتاة، وإقتبس كلمات «نيتشه» ليبرهن بها على سيادة نظرية واحدة في العالم:

«الأرض تراث القوة والمستقبل ملك للأقوياء المنتصرين الذين لهم حق الحياة؛ النضال من أجل البقاء، وأيضاً للسيادة، هكذا يمكن لمصر إستعادة أمجاد الماضي، واجبنا نحن الطلاب أن نبني وطناً جديداً، هيا معاً لنؤسس مستقبلنا على دعائم صلبة... الصناعة والتجارة تؤسس حضارة القرن العشرين وروح الأمم المتمدينة... هيا لنحض على عظمة ومجد تاريخ مصر، وندعم النهوض الإجتماعي والأخلاقي والثقافي والإقتصادي».

بعد عام، أسس أحمد حسين «جماعة الشباب الحر تأييداً للمعاهدة» بمناسبة المفاوضات المصرية البريطانية عام ١٩٢٨ ـ ١٩٢٩ حول المعاهدة، ووجد أول راعٍ سياسي له مؤقتاً، وهو الليبرالي محمد محمود رئيس الوزراء وقتها، وشق أحمد حسين بفضله طريقه في الساحة السياسية، وطالب المصريين بالنداء من أجل «زعيم وقائد لحركتهم ليس تركياً أو جركسياً بل تجري في عروقه الدماء الفرعونية» وبدت الإشارة هنا إلى ضعف فرصة مصر في التطور لتصبح دولة قوية بسبب عدم كون حكامها غير مصريين. في مارس عام ١٩٣٠ أصدر أحمد حسين بالإشتراك مع فتحي رضوان العدد الأول من جريدة «الصرخة» التي أصبحت عام ١٩٣٣ لسان حال جماعة مصر الفتاة.

يعكس برنامج ومبادىء مصر الفتاة المنشور في عام ١٩٣٣ وجود أفكار وقناعات وقيم مشتركة مع جيل عبد الناصر، ولكن هناك ثلاثاً لها أهمية خاصة، فلقد كانت مصر الفتاة تحتقر كل ما هو أجنبي وكانت ذات حس وطني متطرف، وكان وطنها يشمل مصر والسودان، متحدين إتحاداً لا إنفصال له، مرتبطين بالأقطار العربية. وكان هدفها خلق مصر القوية وجعلها زعيمة للعالم الإسلامي، وكما هو واضح في أهداف برنامج الجماعة بالتأكيد على غرس روح الجندية في الشباب. وأهم من ذلك، كانت تستهدف تأميم الممتلكات

الأجنبية، اجراء إصلاح زراعي، وبناء التعاونيات، تطوير الصناعة وتحقيق الإكتفاء الذاتي إقتصادياً، وضمان التعليم المجاني للجميع، وتحسين الرعاية والخدمات الصحية، وكانت الوسائل لتحقيق هذه المهام خليطاً من الإيمان والعمل.

إستهلت الطبعة الأولى من برنامج ومبادىء الجماعة بإعلان إيمانها:

«مصر هي مركز العالم الشرقي وزعيمة العالم الإسلامي، ينبغي بعثها، ودماء الشباب المتقدة بحاجة للإيمان والعلم، والمهمة تتطلب أولئك المستعدين للموت، المعاناة، والصعاب، ويرحبون بالتضحية، وهذه السمات لا يمكن توفرها في الجيل الأكبر، لكنها متوفرة في جيل الشباب، الجيل الجديد، جنود مصر الفتاة، وعلى أكتافهم وسواعدهم تقع مهمة إستعادة وبعث مجدنا القديم، هذا هو إيمان وعقيدة مصر الفتاة.

ويمضي البرنامج في تحديد أهداف جماعة مصر الفتاة:

«شعارنا هو الله، الوطن، الملك، هدفنا أن تصبح مصر... إمبراطورية كبرى، تضم مصر والسودان، متحالفة مع الأقطار العربية وقائدة للمجتمع الإسلامي، وغاية أهداف نضالنا هي وضع الأجانب في موضعهم الصحيح كضيوف، وليس كسادة، لبلدنا، وإلغاء الإمتيازات الأجنبية والمحاكم المختلطة بجرة قلم، وتمصير الشركات الأجنبية وتعريب اللغة التجارية الرسمية، وجعل يوم الجمعة يوم العطلة الرسمية، ومنع إشتغال الأجانب في مصر بدون تصريح رسمي». هذه المطالب كانت التيار الرئيسي للوطنية المصرية، هكذا، ألغيت الإمتيازات عام ١٩٣٧ في أعقاب معاهدة ١٩٣٦، أغلقت المحاكم المختلطة عام ١٩٤٩، وشهد عام ١٩٤٧ بداية تمصير الشركات، وأصبح يوم الجمعة العطلة الرسمية بعد ثورة يوليو ١٩٥٢.

«يهدف نضالنا الإقتصادي إلى توسيع رقعة الأرض الزراعية، مضاعفة الإنتاج الزراعي، زيادة القروض للفلاحين، إقامة التعاونيات لتقديم الأسمدة، البذور، القروض والالآت الزراعية، في الصناعة نريد إنشاء صناعات زراعية، كيميائية، معدنية، وتوليد الكهرباء من سد أسوان، في التجارة نريد تحقيق الإكتفاء الذاتي، والتحكم في التجارة الخارجية وإقامة بحرية تجارية، وإقامة طرق للنقل وبنك مركزي لإصدار العملات وإيداع رأس المال، في التعليم نريد إقامة تعليم عالٍ متاح للجميع، بناء المكتبات وتوفير أجهزة المذياع لكل القرى، وتنظيم حملة للخدمة العسكرية الإجبارية، في التشريع الإجتماعي نشجع الإدخار وإقامة التأمينات الإجتماعية للدولة».

بدون أي إرتباط خاص بجماعة مصر الفتاة كانت كل الأهداف السابقة خطاباً شائع

التداول، وتكررت في خطب عبد الناصر وبيانات الضباط الأحرار وبرنامجهم الثوري بعد عشرين عاماً، حيث كان هناك التحريض للنضال الشعبي ضد بريطانيا والعرش والنظام القائم، ووجدت علاقات بين مصر الفتاة وعدد من أعضاء الضباط الأحرار في الفترة من ١٩٣٨ حتى ١٩٤٩.

في عام ١٩٣٩، أرسل أحمد حسين خطاباً إلى الملك فاروق إمتدح فيه شباب الملك بإعتباره عاملاً حاسماً لتجديد وبعث مصر والإسلام، وإشتكى من فقدان الحماس الديني، وتفكك الروابط الأسرية، وضلال الريفيين وفساد المدينة؛ وبالنسبة للطبقات الحاكمة وأتباعهم «هدفهم الأول والأخير هو المكاسب الشخصية» وطالب بتغيير الوزراء، على أساس تغيير القيم والمبادىء وتطهير الحياة المصرية على أساس الشريعة الإسلامية، وتجنيد الشباب لخدمة البلاد. ولن يكون هذا ممكناً إلا بوجود حكومة شابة مؤمنة بالله، واثقة بحقوق الوطن ولا تتيح لأي شخص أن يتلاعب بها.

بعد عام، غيرت مصر الفتاة إسمها إلى الحزب الوطني الإسلامي، وأصدرت خطاباً آخر إلى الملك، أكثر طموحاً، بينما كان الإخوان المسلمون يستجمعون قواهم، والحرب على أبواب مصر في الصحراء الغربية، وبريطانيا في وضع حرج، وإكتشف أحمد حسين فشل الجيل القديم، وركز على الحاجة لتقوية المشاعر المصرية، لكن هناك إيحاء حول كون مصر زعيمة المعسكر العربي، لأن «الروح التي تمتلك العالم اليوم هي روح النضال والصراع... والضعيف لا مكان له في العالم... ولا نستطيع البقاء ضعفاء» وتمضي الوثيقة بإقتراح إمكانية إكتساب القوة بأيدي الجيل الجديد فقط، وطرحت فكرة التضامن العربي في إطار جماعة تتكون من خمسين مليون عربي، وتقوم على وحدة الدين، الثقافة، اللغة، والقضاء على الفرقة والتجزئة السائدة في الوطن العربي بسبب التخلف والتدهور، ومصر هي القيادة الطبيعية للوطن العربي، وقاعدة القوة في الجماعة الجديدة هي القانون، والإيمان، والعمل ضد أوروبا.

«الإسلام دين العزة والقوة» في نهاية خطابه، إمتدح أحمد حسين جلالة الملك وإنجازات جده العظيم، محمد علي، وطالبه بإلغاء الإمتيازات الأجنبية، وطالبه بإقامة جيش قوي.

ونلاحظ هنا تطور الجماعة من توجه الوطن المصري الضيق نحو قناعة عربية إسلامية أوسع:

«طالما أن برنامجنا يتجاوز حدود الوطنية المصرية الضيقة، وكما أننا نعتقد أن أساس

هذه الوطنية هو الإسلام، وهدفها النضال لتحقيق المصالح الإسلامية، لذا فإننا نضيف كلمة «إسلامية» إلى «الوطنية».

والآن أصبح الحزب يريد طرد الإستعمار من كل البلاد الإسلامية، وتطهير وتنقية القوانين، ويطالب ببناء جيش قوامه مائتي ألف وإقامة صناعة سلاح وطنية، ويريد إغلاق كل المدارس الأجنبية، وتقديم رعاية صحية مجانية وتأمينات إجتماعية للجميع، وتأميم كل الشركات الأجنبية وقناة السويس، وحظر إمتلاك الأجانب للأراضي، ويحث على تحويل مصر إلى بلد صناعي، وإقامة تحالف عربي ضد الإستعمار في المنطقة كما طالب بإقامة أكبر محطة إذاعية في القاهرة.

في ٢٢ يونيه ١٩٤٠، تحت إصرار بريطاني، أقيلت حكومة علي ماهر، ومعها أطيح بالفريق عزيز المصري، رئيس أركان الجيش المصري، والرئيس الشرفي لمصر الفتاة، وأحد أهم مؤيديها، ووزع منشور بتاريخ ٥ يوليو ١٩٤٠، منسوباً إلى مصر الفتاة، بدأ بعبارة «الله معنا: نداء بالجهاد ضد إنجلترا» موقع بإسم «القيادة الرباعية» والتي يشك أنها مكونة من أحمد حسين، عزيز المصري، علي ماهر، فتحي رضوان «الثورة المصرية الإسلامية تعلن بإسم الله والوطن والملك الحرب على إنجلترا والعملاء الذين يؤيدونها».

في الواقع، كانت مصر الفتاة تعارض طرد حكومة علي ماهر، لكن بإعلانها الحرب المقدسة ضد الإنجليز يعلنون أيضاً الثورة، التي ضمن أهدافها «إعادة تنظيم وبناء المجتمع المصري على أساس إعادة توزيع الثروة... رفع مستوى المعيشة للطبقات العاملة» وحضوا صراحة كل ضباط الجيش والبوليس على العمل النشط لإشعال هذه الثورة، وطالبوهم بالعمل الفوري وإيقاف كل أوجه التعاون مع السلطات البريطانية وكل أولئك الذين يخدمونهم، وتعطيل وإعاقة وسائل إتصال وتموين وإمدادات الجيش البريطاني؛ في النهاية، أصدرت الجماعة تحذيراً لهؤلاء العملاء الذين لطخوا وأهانوا الإسلام والمسلمين، خصوصاً في فلسطين، وحذروا كبار الضباط المتعاونين مع الجيش البريطاني.

«يجب أن نوضح لهم أن الضباط الشباب يحذرونهم بأنهم سيتولون أمرهم إذا ما تآمروا على هذه الثورة، خصوصاً هؤلاء المسؤولين عن طرد ونفي الفريق عزيز المصري، ويحذرون أيضاً السياسيين والمسؤولين».

من الطبيعي، أن مثل تلك المنشورات قد ظهرت تحت ضغط إقالة حكومة علي ماهر وطرد الفريق عزيز المصري، ولم تكن بعيدة عن الجهود الإيطالية لعرقلة وإرباك البريطانيين في مصر أثناء الحرب، مع ذلك تبقى حقيقة أن لهجة التحذير في المنشور وفي المذكرة المرفوعة

للملك، تعكس إتجاهات وسخط الشباب، والضباط المتمردين من جيل عبد الناصر، الذين أثارتهم الأحداث الدولية وتطلعهم للسلطة.

بعد ثمانية أعوام، بينما تصاعد نشاط وشعبية الإخوان المسلمين، ونشوب حرب فلسطين والعمليات الفدائية ضد القوات البريطانية في منطقة قناة السويس، وظهور القوة السوفياتية وما تبعها من تصاعد النشاط الشيوعي في معظم الأقطار، قام أحمد حسين بتغيير إسم منظمته ثانية لتصبح الحزب الإشتراكي المصري، وعدّل برنامجها ليواجه الظروف الجديدة، والشعار القديم «الله، الوطن، الملك» أصبح «الله، الوطن، الشعب» مراعاة لفكرة الصراع الطبقي والمعارضة للملكية. مع ذلك، أكد أحمد حسين أن إشتراكيته مستمدة من قلب الإسلام وأركان رسالته وجوهرها، وأعاد تسمية جريدة الحزب لتصبح «الإشتراكية».

في برنامجه، طالب الحزب الإشتراكي بتحديد ملكية الأراضي الزراعية بخمسين فداناً، ومصادرة الإقطاعيات، وتصفية الإقطاع وإعادة توزيع الأراضي بقدر خمسة أفدنة لكل مزارع، ويطالب بإقامة المزارع التعاونية وتجميع المحاصيل تعاونياً، وتأميم الصناعة وكل المنشآت العامة، واقترح ضماناً إجتماعياً، وإعادة توزيع الثروة من خلال الضرائب التصاعدية على الدخل والثروة الموروثة، وسياسة الأجور، كان من أعضاء الحزب إبراهيم شكري الذي إنتخب عضواً في البرلمان عام ١٩٤٩، وقدم مشروعاً للإصلاح الزراعي، وإلغاء الألقاب، وتنظيم جمعيات للفلاحين وإتحادات للعمال.

كان هناك تحول واضح ناحية اليسار في سياسة الحزب الخارجية، لكنه حافظ أساساً على فكرة وحدة وادي النيل بين مصر والسودان، وطالب بالوحدة بين الشعوب العربية، ورفض المفاوضات على حساب المبادىء كوسيلة للحصول على الإستقلال وتوقيع المعاهدات مع الدول الإستعمارية، أو الإنضمام لإتفاقيات الدفاع معهم، وأعلن عداءه لحلف الأطلنطي والإستعمار الأمريكي المؤيد للوجود البريطاني في مصر. وطالب بالتأميم الفوري للقناة، وأعلن تأييده للصين في الحرب الكورية، وأعلن أحمد حسين ذلك في رسالته للمؤتمر الإشتراكي العربي في لبنان عام ١٩٥١ عندما منعت الحكومة المصرية الوفد من السفر: «تتألب الرأسمالية والإستعمار والرجعية على الشعب المصري لتحطيم إرادته وجعله سجين الجهل والمرض والفقر... نحن هنا لنمثل الشعب المصري».

بحلول عام ١٩٥١ ـ ١٩٥٢ طالب أحمد حسين وحزبه علناً بإنتهاج العنف للإطاحة بالنظام المصري، وتوالت مقالاته النارية في صحيفته من مايو ١٩٥١ وحتى يوم السبت

الأسود عندما إحترقت القاهرة في يناير ١٩٥٢، في تلك المقالات طرح فكرة الثورة على مرحلتين: النضال ضد النظام «الإقطاعي الرأسمالي» كعنصر من النضال ضد الإستعمار، بهذا المعنى ربط بين النضال للتحرر الوطني والنضال للعدل الإجتماعي، وعرف الإشتراكية بهذا المعنى.

في تلك الفترة طالبت الطليعة الوفدية وكل ما يسمى بالعناصر التقدمية بنفس العمل وهو الإطاحة بالنظام على صدر صفحات جرائد:

«الملايين» لسان حال حدتو، «الجمهور المصري» روز اليوسف، «الكاتب» الناطقة بلسان أنصار السلام.

رغم عدم تحرر أحمد حسين كاملاً من توجيه السياسيين الأقوياء له (علي ماهر، صالح حرب، وحتى القصر) إلا أنه ظل طيلة حياته السياسية متسقاً مع حماسه الوطني الراديكالي؛ في الواقع، أصبحت رؤيته لمصر والسياسة العربية والدولية أكثر تقدمية في إطار تلك الفترة، وساعدت جماعته وبعدها حزبه ودعايته على غرس الراديكالية في جيل كامل من المصريين، وخصوصاً ضباط الجيش وأولئك الذين كرسوا عملهم للإطاحة بالحكم القائم، سواء داخل أو خارج الجيش، مثل أنور السادات وحسن عزت، وجيه أباظه وآخرين، فلقد ساعدهم أحمد حسين على الربط بين الإطاحة بالملك وطرد بريطانيا بمفهوم الدور القيادي لمصر في الوطن العربي وشؤون الشرق الأوسط.

كانت بريطانيا مهتمة بهذا التطور وكانت معلوماتها عنه دقيقة، فالتقارير المرسلة من القاهرة إلى وزارة الخارجية منذ عام ١٩٣٣ تتضمن معلومات عن حركة مصر الفتاة وعلاقاتها بالسياسيين المصريين، وفي أحد أعداد «الصرخة» المبكرة والمرسلة للقائد البريطاني بالبريد، يتحدث عن «نكبة قناة السويس، مأساة المحاكم المختلطة، عار الإمتيازات، فصل جغبوب والسودان عن مصر، مهزلة الدستور والبرلمان» وإعتبرت كلها حلقات في سلسلة المؤامرة لتصفية النفوذ البريطاني في وادي النيل، ويقول التقرير «لم تعد مصر الفتاة تؤمن بالمناهج البريطانية».

في توافق مع إندلاع النشاط المعادي للتبشير الغربي، والذي قادته جمعية الشبان المسلمين وجماعات أخرى، نشرت مصر الفتاة الإعتقاد بأن «إنجلترا هي المسؤولة عن كل مشاكلنا» وهو الشعار الذي كرره عبد الناصر بعد عشرين عاماً.

خلافاً لنصيحة سير اليكس كيون بويد رئيس القسم الأوروبي، إعتقدت وزارة الداخلية أن رجال القصر مثل علي ماهر والملك فؤاد هم الذين وراء جماعة مصر الفتاة. وفي

مايو ١٩٣٤، حذر سير مايلز لامبسون وزير الخارجية من الخطر المتوقع لمصر الفتاة، التي إعتبرها «ليست مهمة في حد ذاتها. . . لكنها تجسد الإتجاهات التي يجب مراقبتها. . . والتي ربما تجد في مصر الفتاة التعبير الصادق والأكثر إشباعاً للعقلية شبه الفاشية من النمو الوطني المتشدد».

إبان الأزمة الإثيوبية؛ أخبر القائد البريطاني العام في تقريره عن مصر الفتاة وعلاقاتها مع العملاء الإيطاليين، خصوصاً أوجو دادون مراسل «صحيفة الشرق» حيث يظهر تعاطف رجال القصر ومسؤولي الصحيفة مع الجماعة، وبالمثل روابطها الوليدة والسرية مع الأمير عباس حلمي ومنظمة العمال، ولقد تجاوب أحمد حسين مع الضغوط والأموال الإيطالية بإعلان حياد مصر في المشكلة الاثيوبية، وبالتالي أصبح هو وفتحي رضوان تحت رقابة لصيقة إبان زيارتهما لأوروبا وإنجلترا في نهاية عام ١٩٣٥، حيث تراقبهم المخابرات البريطانية والقسم المخصوص، وأرسل سير أليكس كيون بويد إلى لامبسون في أول يوليو ١٩٣٦ يخبره عن محاولة علي ماهر تأمين الدعم المالي من وزارة الداخلية لأحمد حسين «علي ماهر يرغب في إستخدام مصر الفتاة والقمصان الخضراء لمواجهة القمصان الزرقاء للوفد» لكن لم يستطع علي ماهر إطلاقاً السيطرة أو التلاعب بنشاط أحمد حسين، وفي أعقاب عودته من إنجلترا في فبراير ١٩٣٦، خاطب أحمد حسين حشود المرحبين بعودته مدافعاً عن إستخدام القوة كوسيلة أساسية لإلغاء السيطرة البريطانية على مصر، وتحدث عن القوة كطريق وحيد للإستقلال في حالة فشل مفاوضات المعاهدة، وستكون مصر الفتاة نواة الجيش الذي يقاتل الإنجليز.

بعد محاولة إغتيال النحاس باشا في ٢٨ نوفمبر ١٩٣٧ على يد «عز الدين عبد القادر» عضو القمصان الخضر، توالت تقارير كثيرة عن تصاعد أنشطة مصر الفتاة وعلاقاتها المتعددة، وفي مايو ١٩٣٨، كتب لامبسون يخبر أوليفنت:

«قسم الأمن العام الذي يحتفظ بعلاقات وثيقة، كما أعلم، مع منظمة القمصان الخضر، أعد تقارير وافية غن إجراء مناقشات داخل الجماعة وقيادة القمصان الخضر عن إمكانية المشاركة في العمل مع الجيش والبوليس، للقيام بإنقلاب للإطاحة بالعصابة القديمة، وتعطيل الدستور وتطبيق نظام حكم شبيه بالدولة الشمولية».

بعد عامين من أول رحلاته إلى أوروبا، تقلص نشاط مصر الفتاة بطريقة أو أخرى، حيث شدد الأمن العام إبان حكومة الوفد من الرقابة اللصيقة لها؛ وتظهر حادثتان في ١٩٣٧ تدهور وضع مصر الفتاة، الأولى خسران قضية الطعن في النحاس باشا ومكرم عبيد على صفحات الجريدة، وحوكم أحمد حسين بالسجن ثلاثة أشهر، ومحاولة إغتيال النحاس باشا على يد عبد القادر، وفي عام ١٩٣٨ أطلقت الحكومة الجديدة برئاسة محمد محمود يد أحمد حسين

وعندما منع القانون الصادر في أبريل ١٩٣٨ نشاطات منظمات القمصان، حول أحمد حسين منظمته إلى حزب سياسي.

تصاعد نشاط أحمد حسين قبيل زيارته الثانية لأوروبا في صيف العام ١٩٣٨، وزار إبانها السيد هاملتون في ٢٦ مايو ١٩٣٨، حيث أعرب له عن معارضته وعن السخط الذي تسبب بحدوثه السياسيون الكبار، وإمتدح في نفس الوقت علي ماهر، والبنداري باشا (رجل القصر) وعزيز المصري، وأمين عثمان، كلهم كانوا من رجال القصر وكان أمين عثمان صديقاً للمندوب السامي البريطاني.

في مقابلته مع صحيفة إيطالية تصدر في روما، في زيارته تلك، أفاض أحمد حسين في حديثه، في محاولة لربط حركته بالمهمة التي حققها ميتزيني في إيطاليا، كما يشير تقرير السفارة البريطانية في روما:

«رداً على سؤال ما إذا كانت حركته وشعارها «الله، الوطن، الملك» ترتبط روحها بالديمقراطيات البرلمانية في فرنسا وإنجلترا أم ترتبط بالديمقراطيات الشعبية في إيطاليا وألمانيا، أجاب مشيراً لديمقراطيات إيطاليا وألمانيا بإعتبارها الديمقراطية الحقيقية الوحيدة في أوروبا الآن، وأن أحد نقاط برنامجه هو إلغاء الرتب والألقاب وبناء طبقة إجتماعية واحدة».

لكن هناك ثلاثة أشياء عرقلت تجدد نشاط أحمد حسين عام ١٩٣٨:

«إرتباطه الوثيق بالقصر وبعض السياسيين أبرزهم علي ماهر، تلقيه الدعم المالي من عملاء إيطاليا، وبالمثل من المخابرات البريطانية عبر أمين عثمان باشا» كما يشير لامبسون في تقريره إلى أوليفنت (٢٠ مايو ١٩٣٨، FO 371/21947)، كانت إشاراته المتكررة إلى سخط الضباط الشبان تعود إلى روابطهم ببعض أعضاء الجماعة من الضباط في الجيش، وعلاقاته الواسعة مع العملاء الفاشيين في مصر وأوروبا، ودعمه السياسي من جانب حكومة محمد محمود، حيث كان قد نظم منذ عشر سنوات منظمة طلابية لتأييد مفاوضات محمد محمود لتوقيع المعاهدة البريطانية المصرية، وتواصل صعوده عامي ٣٩ - ١٩٤٠ عندما ترأس علي ماهر الحكومة، وكان مؤيده الآخر، الفريق عزيز المصري، واللواء صالح حرب، لكن تزايدت مشاكل أحمد حسين مع السلطات بمجرد خروج علي ماهر من الحكومة تحت ضغط بريطانيا، وتورط بعض أتباعه من ضباط الجيش في محاولات معادية لبريطانيا عامي ٤١ - ١٩٤٢، وجسدت هذه المحاولات إنشقاق ضباط الجيش عن المجرى العام لمصر الفتاة ونشاطها، وبدأوا نشاطهم المستمر في السعي لإستلام السلطة.

حتى تلك الفترة كانت مصر الفتاة تعكس بفعالية وتجسد صورة الحركة المعبرة عن

رؤى وطموحات الشباب المتمرد الثائر ضد ظروف مصر السياسية، ضد إعتدال الوفد فيما يتعلق بالعلاقات المصرية البريطانية. وتعاون زعماء الوفد مع بريطانيا، بينما كانت مصر الفتاة ألصق برؤية الحزب الوطني في هذا الشأن، وأصبحت الجماعة أكثر تورطاً في السياسة المصرية إبان حرب فلسطين وفي العمليات الفدائية ضد البريطانيين في منطقة القنال، خصوصاً إبان الفترة الواقعة بين إلغاء حزب الوفد للمعاهدة في اكتوبر ١٩٥١، وقيام ثورة يوليو ١٩٥٢، وعندما أصبحت حزباً إشتراكياً (٤٩ - ١٩٥٢) شنت هجوماً جماهيرياً على النظام بأكمله، الملك، الزعماء السياسيين، والبرلمان، وتبنت الدفاع عن الكفاح المسلح ضد بريطانيا بعد إلغاء المعاهدة، ونظمت ما أسمته لواء التحرير، وتوعدت بالموت الإقطاعيين والرأسماليين.

حتى إبان الثلاثينات، إجتذبت أعضاءها من صفوف الطلاب، موظفي الحكومة، ضباط الجيش، التجار، العمال، وعدد قليل من الأثرياء، وإفتقرت كحزب للبناء التنظيمي القوي، ولهذا كانت عاجزة عن الوصول للسلطة، ورغم سيطرة وتوجيه بعض رجال السياسة الأقوياء لها أثناء تلك الفترة، إلا أنها طرحت بعض الأفكار الجذابة المتعلقة بالقوة الوطنية، الإصلاح الإقتصادي والعدل الإجتماعي حتى في ١٩٥١ - ١٩٥٢، عندما كانت تصدر صحيفتها «الإشتراكية» أسبوعياً، وصل توزيعها إلى ٨٠ ثمانين ألف نسخة، وكان خطها الأساسي إثارة الشعب ضد حكامه وإعدادهم لثورة منظمة، وتبقى حقيقة أنها رغم الدعاية السياسية وبعض الأنشطة التي زودت بها جيلاً كاملاً من الشباب المصري، خصوصاً جيل عبد الناصر، وغرس الحاجة الملحة لتغيير النظام السياسي، والإطاحة بالنظام القديم، ربما لإكتشافه عجز وعدم جدوى علاقات أحمد حسين بعلي ماهر وباقي السياسيين، كما حدث في يناير ١٩٥٢ بعد يوم السبت الأسود وحريق القاهرة، وسجنه وإتهامه بالتدبير له.

حتى بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ كان أحمد حسين هو الذي رشح علي ماهر ليترأس أول وزارة مدنية للثورة، وحصل أتباعه على أهم المواقع في نظام الثورة.

لقد ترددت آراء وتعاليم أحمد حسين السياسية داخل الجيش، فمعظم ضباط الجيش كانوا إما أعضاء أو متعاطفين مع جماعة مصر الفتاة، حيث تشكل عقلهم السياسي وشخصيتهم كجيل مقاوم للوضع القائم، من خلال الإنغماس في مظاهرات رفض نظام اسماعيل صدقي (٣٠ - ١٩٣٣)، ولم يستطع وصول الوفد للسلطة وتوقيع المعاهدة (١٩٣٦) كبح جماح تمرد جيل الشباب ضد النظام السياسي، ومشاعرهم المعادية لبريطانيا والعداء للغرب بوجه عام الذي نشرته جماعة مصر الفتاة والإخوان المسلمين، في الوقت الذي ظهرت القضية الفلسطينية لتحتل موقعها على المسرح السياسي العربي، وأدى فشل العمل السياسي إلى تقوية تبني بديل له: العنف والكفاح المسلح.

هكذا كان المناخ السياسي العام السائد بينما بدأ جيل عبد الناصر من صغار الضباط مسيرتهم في الجيش، قبيل عامين من إندلاع الحرب العالمية الثانية، وكانوا مختلفين في خلفياتهم الإجتماعية وتكوينهم السياسي عن الجيل القديم من كبار الضباط الذين عملوا بشكل وثيق مع الجيش البريطاني في مصر. في عامي ٤٠ ـ ١٩٤١، تغلغل الإخوان المسلمون في صفوف الجيش، وإستطاعوا تجنيد بعض الضباط مثل العقيد محمد لبيب، بينما تنازع الضباط الشبان الصراع الدائر بين الملك الذي سعى للسيطرة على الجيش، وبين الوفد الذي حاول إفشال خطط الملك.

الفصل الرابع

جماعة الاخوان المسلمين

«تتبقى الدائرة الثالثة ـ دائرة إخواننا في الاسلام . . .
كلما تطلعت الى مئات الملايين من المسلمين يجمعهم جميعاً نفس الإيمان، يتزايد وعي بإمكانيات التعاون بين مئات الملايين من المسلمين والتي ستوفر لهم قوة غير محدودة» .

عبد الناصر: فلسفة الثورة

من الصعب تحديد مجمل إطار وطبيعة العلاقة بين الإخوان المسلمين وجيل عبد الناصر من ضباط الجيش في الفترة من ١٩٤٠ حتى ١٩٥٢، فهناك تضارب وتضليل وتصارع بين تقارير مختلفة ومصادر عديدة، فلقد كان بعض الضباط الأحرار أعضاء مع الإخوان المسلمين مثل عبد المنعم عبد الرؤوف، رشاد مهنا، على سبيل المثال، وكان هناك آخرون متعاطفون أو متعاونون معهم مثل البغدادي، عبد الناصر، كمال الدين حسين، وأنور السادات.

في الواقع، بدأ الإنغماس في العمل السياسي للعديد من ضباط الجيش الذين أصبحوا أعضاء في حركة الضباط الأحرار في إطار العمليات التي قادها الإخوان المسلمون في حرب فلسطين (٤٧ ـ ١٩٤٩) وعمليات المقاومة ضد الإحتلال البريطاني في قناة السويس (١٩٤٦ ـ ١٩٥٣)، ولقد كانت شبكة الحركة الإخوانية في صفوف الجيش ممتدة، ونفذوا عمليات خاصة بالتعاون مع جماعة مصر الفتاة، ومفتي فلسطين، والجيش السوري ضد البريطانيين في مصر واليهود في فلسطين، والمثير حقاً هو تعاونهم في ظروف خاصة مع علي ماهر، صالح حرب، وزعماء سياسيين آخرين.

لقد كان متطوعو جوالة الإخوان المسلمين أول قوات تصل فلسطين عام ١٩٤٧ قبيل أن تنظم أي جماعات سياسية عربية قواتها المتطوعة؛ في نفس الوقت، كلفت الجامعة العربية اللواء المتقاعد عبد الواحد سبل بتنظيم المواطنين الفلسطينيين لمقاومة اليهود. ولقد شكلت تشكيلات الإخوان العمود الفقري والجانب الرئيسي من المقاومة المبكرة، وكان لديهم خبرة بالمواقع الفلسطينية منذ ثورة (١٩٣٦)؛ كان الداعي الرئيسي لدخول الإخوان للمقاومة والدفاع عن فلسطين هو سعيد رمضان، وإختير المقدم محمود لبيب مسؤول الشؤون العسكرية في الجماعة لقيادة النضال في فلسطين.

أرسل الإخوان أول تشكيلات المتطوعين إلى فلسطين قبل ١٥ مايو ١٩٤٨، ومولت الجامعة العربية تكاليف حملة المقاومة، وقام ضباط متطوعون من الجيش المصري بتدريبهم في معسكر الهايكستب خارج القاهرة، بقيادة العقيد البطل أحمد عبد العزيز، الذي استشهد أثناء القتال في فلسطين. ويقول عنه عبد الناصر في فلسفة الثورة:

(ذات يوم، كان كمال الدين حسين جالساً بالقرب مني في فلسطين، يبدو ساهماً، وعيناه تفيض غضباً وهياجاً وقال لي: هل تعرف ماذا قال أحمد عبد العزيز لي قبل إستشهاده؟ سألته «ماذا قال؟» وأجابني وصوته يتهدج وعيناه ساهمتان: «إسمع، يا كمال، المعركة الكبرى هناك في مصر»).

طبقاً لكلام عبد الناصر، فلقد وضعت أجهزة البوليس السياسي تنظيم الضباط الأحرار تحت أعينها ورقابتها، «إتجهت عيون البوليس السياسي ناحيتنا» في أبريل ١٩٤٨، وكان عبد الناصر وقتها يستكمل دورته الدراسية في كلية أركان الحرب، وإختير عدد من الضباط كمتطوعين للقتال في فلسطين بقيادة العقيد أحمد عبد العزيز، ولم يتم إختيار عبد الناصر للتطوع، وكان قد أنهى دراسته بكلية الأركان منذ شهر؛ لكنه كتب في فلسفة الثورة «في تلك الفترة إجتمع بعض أعضاء الهيئة التأسيسية لتنظيم الضباط الأحرار في منزلي وقرروا ضرورة سفر بعضنا كمتطوعين إلى فلسطين وبقاء الباقي في القاهرة».

كان كمال الدين حسين هو الذي تطوع، وتعاطفه مع الإخوان المسلمين معلوم وشائع، إن لم يكن عضواً في الحقيقة. على أية حال، كان القسم الأكبر من قوة متطوعي العقيد أحمد عبد العزيز في المعركة تحت إشراف المقدم محمود لبيب، واللواء صالح حرب رئيس جماعة الشبان المسلمين، بينما يقود العقيد أحمد عبد العزيز عمليات القتال، وكان يقوم بتدريب المتطوعين الجدد الرائد حسين مصطفى عضو الإخوان المسلمين؛ وبعد ذلك عين مكتب إرشاد الجماعة الشيخ محمد فرغلي قائداً سياسياً للإشراف على كل العمليات والأنشطة في فلسطين، وأعدم عام ١٩٥٤ عندما حظرت الثورة نشاط الجماعة وحلّتها(*).

يتضح إذن، أن تدفق المتطوعين على فلسطين عام ٤٧ ـ ١٩٤٨ كان بقيادة الإخوان المسلمين، ورغم تحفظ الحكومة وتحذيرها، إلا أنها كانت عاجزة عن منع الإخوان من الإنخراط في الجهاد من أجل فلسطين. وعلى الفور، تدخلت الجامعة العربية لتقدم الغطاء السياسي، وعجزت الحكومة عن منع ضباط الجيش من التطوع للقتال دفاعاً عن فلسطين خشية أن تلحق بنفسها تهمة الخيانة للقضية العربية. لكنها تنبهت بحذر ليس من تمتع الإخوان المسلمين بتلك القوى البشرية والتنظيمية الهائلة، لكن من التغلغل الواضح لهم في صفوف الجيش.

لقد إستخلص عبد الناصر، أيضاً، درساً نافعاً من إستعراض القوة التنظيمية،

(*) بعدما نفذت الجماعة محاولة اغتيال عبد الناصر (المترجم).

والفعالية للإخوان المسلمين، وكان لا بد من قدر من التعاون بين الضباط الأحرار والإخوان المسلمين، على أية حال، فمعظم هؤلاء الضباط كانوا إما متعاطفين أو أعضاء في الإخوان المسلمين، وكان التوظيف الدقيق لمواردهم الواسعة وشبكة علاقاتهم وعملياتهم القوية ذا ميزة نافعة لأهداف تنظيم الضباط الأحرار، وفوق ذلك أتاح التعاون مع الإخوان في حرب فلسطين ومنطقة القناة الفرصة لعبد الناصر لمراقبة ومتابعة بنائهم التنظيمي وشكل القيادة وتقييم قواهم الفعلية والممكنة. وكانت هذه المعلومات التي إكتسبها عبد الناصر في الفترة من ٤٨ ـ ١٩٥٢ هي التي مكنته عام ١٩٥٤ وعام ١٩٦٥ من إحباط معارضتهم لنظامه.

تجيء معظم المعلومات عن العلاقة بين ضباط الجيش والإخوان في الفترة الحرجة السابقة على قيام ثورة يوليو، من الإخوان أنفسهم، ولهذا ينبغي إستخدامها بحذر. على أية حال، عام ١٩٤٨ كان الإخوان تنظيماً جماهيرياً ذا شعبية جارفة، متغلغلاً داخل كل مؤسسات الدولة والمجتمع، وبإعتباره حركة إسلامية كان إتجاهه وثيق الإرتباط بمعظم جماهير الشعب أكثر من أي تنظيم حزبي سياسي آخر، فتلك الأحزاب والجماعات اليسارية كانت أفكارها وبرامجها مصاغة لتلائم حلقة ضيقة جيداً من الأقليات المغتربة ثقافياً عن المجتمع.

في عام ١٩٤٨، جسد الإخوان خطراً حقيقياً وتهديداً ملحاً للنظام القائم، ولم يكن ممكناً إنكار إدعائهم بأنهم قدموا أكبر التضحيات وأعظم البطولات وتحملوا العبء الأكبر في الجهاد ضد اليهود والبريطانيين؛ وبسبب إستعدادهم للبذل في هذا الإتجاه، كان من السهل إجتذاب تعاطف وتأييد وخدمات ضباط الجيش في تلك الفترة الحرجة من تاريخ مصر.

ولم تخرج المعلومات عن تلك القضايا للنور إلا بعد الصدام بين عبد الناصر والإخوان في أكتوبر ١٩٥٤، ومن المعروف أن الخلاف بدأ قبل ذلك بكثير منذ بداية نجاح الثورة، عندما توقع الإخوان أن من حقهم التمتع بدور خاص في النظام الجديد، وكان كامل إسماعيل الشريف عضو الإخوان قد أنهى المسودة الأولى لكتابه «المقاومة السرية في قناة السويس ٥٢ ـ ١٩٥٤» وأصبح جاهزاً للنشر في نهاية ١٩٥٣، لكنه أجل نشره لأن مفاوضات الجلاء كانت في تقدم، لهذا ظهرت الطبعة الأولى له في نهاية ١٩٥٤، عندما أعلن الإخوان معارضتهم ورفضهم لإتفاقية الجلاء وحاولوا إغتيال عبد الناصر في الإسكندرية ٢٦ أكتوبر ١٩٥٤ (حادث المنشية).

رفض الإخوان إتفاقية الجلاء لإعتبارين: الأول، لأنها تبقي على العلاقة مع بريطانيا مما يجعلها مساومة على إستقلال مصر.

الثاني، لأنه لا تستطيع أية حكومة، ولو كانت حكومة الضباط الأحرار، إقناع بريطانيا بـالجلاء عن القنـال «لو لم يبـذل الإخوان جهـادهم الدائم وقـدم شبـاب الإخـوان أرواحهم تضحية من أجل الإستقلال». ويلاحظ لديهم الشعور بالمرارة لإنكار ثمار جهـودهم عبر تلك السنين، كما يشير الشريف في كتابه:

«قـامت ألويـة الموت من الإخـوان باغتيـالات وعمليات خـطف البريـطانيين وتفجير معسكراتهم منذ عام ١٩٤٥ كتعبير عن الكراهية الشعبية. والآن تساوم الحكومة على القضية التي شارك الشعب في تحملها طيلة تلك السنين...».

إبـان تلك الفترة سـاد نوع من النشـاط الفـدائي بـين بعض ضبـاط الجيش، وسجله وأعيد تفسيره في كتابات أنور السادات، كـمال الدين رفعت، وأحمـد حمروش، ولم يثبتـوا أي علاقة بالنشاط الفدائي الإخواني، بل مجرد تزامن، وبالمثل مظاهرات نهاية الأربعينات وبداية الخمسينات التي عزوها لتنظيم الإخوان وقيادته.

لكن ربما الذي إجتـذب ضباط الجيش للتعـاون مع الإخـوان هو وجـود منظمـة سرية خاصة داخل الحركـة (التنظيم الخـاص) مكونـة من عناصر منتقـاة، وتستهدف أسـاساً جمـع المعلومات الإستخبارية وتنفيذ الأعمال التخريبية والفدائية. ويحتمل وجود تعاون بـين الضباط المصريين الذين يعملون تحت الأرض «سراً» بعد الحرب العالمية الثانية حتى حرب فلسطين، والتنظيم الخاص لـلإخوان المسلمـين. وتفترض معـظم المعلومات المتـاحة أن الجهـاز السري للإخوان قد تشكل عـام ١٩٤٦ وإخترقت عنـاصره العمال المصريـين العاملين في معسكـرات القنال، وفي السكك الحديدية وباقي وسائل النقـل، والجيش والبوليس والجماعات الـطلابية والنقـابـات المهنيـة، وكـان مكتب الإرشـاد هـو المسؤول عن تلك العمليـات الخـاصـة تحت مسؤوليـة المرشـد العام عبـد القادر عـودة، الـذي خلف الشهيـد حسن البنـا، وأعـدم عـام ١٩٥٤.

قبـل تحديـد طبيعة وإمتـداد عمليات الجهـاز السري وتورط بعض ضبـاط الجيش فيها ينبغي عمـل تقييم سريع لتحـول الإخوان من تـنظيم يقوم بنشر التعـاليم الدينيـة والـدعـوة للأخلاق والقيم الإسـلامية، ليصبـح تنظيمـاً له دوافـع سياسيـة راديكاليـة ويتبنى إستخدام العنف والإرهـاب، وفي إطار هـذا التقييم ينبغي إلقاء نـظرة على عـلاقة الإخـوان بالحكـومة والمؤسسات السياسية القائمة.

لم يقدم أحد هذا التحليل لتحول وإنتقال الإخوان وعلاقاتهم بإستثناء أحمد حسين عام ١٩٤٩، عندما نشر محاضر دفاعـه عن المتهمين بـإغتيال النقـراشي رئيس الوزراء في ديسمـبر

١٩٤٨، أقام أحمد حسين دفاعه القوي على مقدمة واحدة، من جزئين: إن مأساة الإغتيال السياسي كانت نتيجة لعلاقات الأحزاب السياسية الغربية، وهؤلاء الشباب الثلاثة عشر المتهمون كانوا حصاد ظروف سياسية، وهم يجسدون مجمل النسيج الإجتماعي، منهم طلاب جامعات، مهندسون، موظفو دولة، وعمال. في نفس الوقت، ألمح أحمد حسين للعلاقة الغريبة بين الإخوان وهيئات ومؤسسات الدولة؛ فالقائد العام للجيش يعرف الكثير عن نشاطات المرشد العام أثناء عام ١٩٤٨، حتى عندما قمع وحظر نشاط التنظيم في ٨ ديسمبر ١٩٤٨، كان مرشده العام حسن البنا حراً طليقاً، حتى تم إغتياله على أعتاب مقر جماعة الشبان المسلمين في القاهرة في فبراير ١٩٤٩.

أكد أحمد حسين أن قوة الإخوان مستمدة من رسالتهم الدينية والمعارضة الشعبية للنظام القائم، لذا فإن إغتيال النقراشي والمتهم به عبد المجيد أحمد حسين الذي إرتكب جريمته كان تطبيقاً لفتوى إسلامية أصدرها الشيخ سيد سابق، وهكذا إغتيل رئيس الوزراء لأنه بحسب رأي الإخوان المسلمين لم يعد، بسبب سياسته، ضمن جماعة المسلمين؛ بإختصار، قد إنحرف النقراشي وخرج عن إجماع الأمة الإسلامية.

ربما يتقبل المرء تأكيد أحمد حسين بأن الإخوان ظلوا حتى ١٩٤٠ تنظيماً إسلامياً، يعارض أعمال العنف، ولكن يبقى السؤال لماذا وكيف تحول موقفهم؟ وتكمن الإجابة جزئياً في تودد الحكومة وإحتضانها للإخوان. مع بداية عام ١٩٤١ خرج حسن البنا من القمقم «أصبح أكثر ثراء وقوة، يساعده رفاقه المقربون لوزراء الحكومة، وأصبح حراً في إطلاقه والدعوة لرسالته ونشر قضيته».

يجب أن نسترجع الموقف السياسي المضطرب في مصر إبان ١٩٤٠ حتى ١٩٤٢، والذي عكس الموقف العسكري البريطاني المتدهور في الصحراء الغربية؛ وإستثار فرض بريطانيا حكومة وفدية رغماً عن القصر والشعب في ٤ فبراير ١٩٤٢، إستياء ونقمة وإحتقار الملك وأحزاب الأقلية لبريطانيا وأعوانها الوفديين؛ وأثار العداء الواسع للجماعات الراديكالية والضباط الشبان في الجيش، ودفعهم للعمل متعاونين أو في نفس الإتجاه، لتدمير الوفد. وإعتبر كثيرون منهم أهمية إستخدام الإخوان لتحقيق هذا الهدف، وهكذا حدث التحول الخطير.

كان إحتضان الإخوان لتدمير الوفد خصوصاً منذ ١٩٤٤ فصاعداً كما فسره حسن البنا المرشد العام للجماعة، كضوء أخضر لتقوية إهتمامات جماعته حتى للإستيلاء على السلطة والدولة.

هكذا، في عام ١٩٤٦ حول الإخوان أنفسهم من حركة روحية صرفة تصادق كل الأحزاب السياسية، ومع ذلك شُجِّع الإخوان وربما دفعوا أو أجبروا للسير في هذا الإتجاه.

في تلك الفترة الحرجة، حيث تجسدت فكرة الجهاد، الحرب المقدسة التي يتبناها الإخوان المسلمون في تنظيم مسلح سري، وحيث أسسوا الجوالة، التي كانت من بدايتها تنظيماً شبه عسكري غير شرعي «وصل عددها حوالي ألفي شاب تستطيع قيادة الإخوان حشدهم وقتما تشاء» داخل هذا التنظيم المسلح يوجد «تنظيم خاص» عرف فيما بعد بالتنظيم السري المكون من الفدائيين ألوية الموت «بينما كان التنظيم الخاص» جيش الإخوان الحقيقي، كانت الجوالة جيشهم الرسمي، تحت رقابة الحكومة وله حق في عون الحكومة له بإعتباره جمعية خيرية إسلامية مسجلة ومسموح لها بالعروض العامة.

كان هناك حوالي خمسمائة فرع من جماعة الإخوان تستحق إعانة الحكومة في المحافظات ومجالس المدن، بفضل كونها مسجلة رسمياً ضمن الجمعيات الخيرية.

هكذا أضاف الإخوان إلى صحفهم ومصانعهم ومستشفياتهم ومؤسساتهم التجارية والمالية والتأمينية جيشاً خاصاً؛ وفيما بعد، شهدت طبيعة وأسلوب نشاطهم تغيراً جوهرياً، وأصبح إستخدام العنف مجرد تكتيك مقبول وأصبح الصدام مع السلطات حتمياً ووصل الإخوان إلى ذروة قوتهم عندما إستخدمتهم الحكومة في الصراع العربي الصهيوني إبان حرب فلسطين قبيل دخول الجيوش الرسمية الحرب في ١٥ مايو ١٩٤٨.

حتى ذلك التاريخ، كانت الحكومات العربية تخشى التورط المباشر في حرب فلسطين؛ ولهذا قررت دخولها بشكل غير رسمي عبر الجامعة العربية، التي إعتمدت على جماعات وتنظيمات أظهرت حماساً وإستعداداً للدفاع عن فلسطين، وهكذا، عرفت قوات المتطوعين بـ «جيش التحرير».

إتخذت اللجنة العربية العليا لنصرة فلسطين القاهرة مقراً لها، وطلبت جيشاً من مصر، ورفضت الحكومة المصرية رسمياً طلبها، لكنها سمحت بشكل غير رسمي للجنة العليا بالحصول على الأسلحة بمساعدة الإخوان، خصوصاً من الصحراء الغربية تحت إشراف الضباط من قيادة قوات الحدود، وإفتتح الإخوان أنفسهم ورشاً ومحلات لتصليح تلك الأسلحة وجعلها صالحة للإستخدام، وترتيب نقلها.

أشار أحمد حسين إلى رغبة الإخوان القوية في إختراق كل فئات المجتمع المصري بما فيها ضباط الجيش: «كان الإخوان تنظيماً شعبياً جيد التنظيم من الطراز الأول لم يعرف المصريون مثله من قبل، كان يضم خمسمائة ألف عضو بأقل التقديرات» عشية حل الجماعة في

أكتوبر ١٩٤٨، يقول أحمد حسين في مرافعته: «كان تنظيماً يحتل موقعاً متميزاً وبارزاً في المجتمع. لم يوجد بين ليلة وضحاها، بل يرجع تاريخه إلى عشرين عاماً، وإبان تلك الفترة، إكتسب قوة غير مسبوقة ولا نظير لها، وتأثيراً على الحياة في البلاد، لا نظير له في أي بلد إسلامي».

ليست حيوية وفعالية الإخوان فقط هي التي ساعدتهم، بل تشجيع الحكومات المتتابعة لهم في مسارهم المختار ومجمل نشاطاتهم، فلم تظهر أي من تلك الحكومات إستعدادها لتطبيق إجراءات صارمة ضد قيادات الإخوان ونشاطها الإقتصادي وبرنامجها الإجتماعي، لذا كان مستحيلاً عندما قررت الحكومة حظر الجماعة وحلها، أن تنفذ ذلك فعلياً، لأن حركة الإخوان طيلة عشرين عاماً «وسعت وجودها ونشرت خلاياها في كل مكان، ودمجت مصالحها بمصالح الشعب».

بين عامي ١٩٤٦ ـ ١٩٤٨، سار الإخوان وقادوا النضال ضد النظام والبريطانيين في مصر، وطغت عملياتهم على باقي الجماعات المعارضة وألقت بظلالها تبث فيهم الجرأة والتحدي والفعالية، وقرارهم بقيادة المقاومة الفدائية ضد القوات البريطانية في منطقة القناة كان له تأثير صاعق ألهب حماس المصريين، وسيطر التوجس والتخوف على الحكومة، وتواجد المتمردون والثوار في كل مكان خصوصاً في الجيش، وأصبحوا أكثر قلقاً وغيرة من وجودهم خارج «النضال الشعبي الوطني».

إختار الإخوان المسلمون منطقة الشرقية مركزاً لعملياتهم، وضمت الإسماعيلية أقوى تشكيلاتهم السرية ومقراتهم الإدارية لمنطقة القنال وترأسها الشيخ محمد فرغلي عضو مكتب الإرشاد، وكان يدير شبكة العمل المخابراتي، وفوق ذلك كانت الشرقية ذات أهمية إستراتيجية حيث تقع المعسكرات البريطانية هناك، وكانت على مقربة من الصحراء الغربية وسيناء.

طبق الإخوان إستراتيجية ذات محاور ثلاثة: (١) إختراق عمال المعسكرات البريطانية للتجسس والتخريب (٢) حملة دعاية دينية لتقوية الروابط مع عمد ومشايخ القرى والقبائل وكبراء العائلات (٣) حملة جمع تبرعات وأسلحة وذخائر.

وكانت وسائلهم المختارة هي مقاطعة المؤسسات البريطانية وشن حرب عصابات، بمجرد السيطرة على القوة العاملة من المصريين بتلك المعسكرات، يصبح أمر المقاطعة سهلاً، ثم يبدأ تنظيمهم السري شن حرب العصابات، بحلول عام ١٩٥٠ ـ ١٩٥١، أصبحوا في وضع يسمح لهم بالسيطرة والدور القيادي للنضال لتنظيم مظاهرات بإتساع البلاد، وبالمثل، إفشال، والسيطرة على تلك المظاهرات التي ينظمها آخرون. وبعدئذ ممارسة الضغوط على

الحكومة، وإعتبر مؤتمرهم بالإسماعيلية عام ١٩٥١ أقوى وسيلة لإستعراض قواهم وإظهار منطقة القنال ذات المناخ العدائي، منطقة لا يمكن الإحتفاظ بها سواء من جانب الحكومة أو الإنجليز.

كان أعضاء التنظيم السري ينفذون عملياتهم بإستعداد روحي صارم، مستعدون للتضحية بحياتهم في سبيل القضية الدينية والوطنية، وساعد ملاك الأراضي في الشرقية الإخوان على إقامة معسكرات التدريب، خصوصاً في منطقة فاقوس، وكان الضباط يقومون بالتدريب تطوعاً، كان أبرزهم محمد علي سالم وعبد العزيز علي.

أدت قدرة الإخوان على تجنيد وتدريب تلك الأعداد الضخمة إلى إرباك وترويع الحكومة والحركة السرية وسط ضباط الجيش، ففي عام ١٩٥١، ولمواجهة هذه التطورات، عينت الحكومة هيئة تدريب للمتطوعين يترأسها عزيز المصري، والمواوي أحد أبطال حرب فلسطين، وصالح حرب، وأشيع أن الحكومة خصصت مائة ألف جنيه لهذا الغرض، ومع ذلك لم ينجز إلا القليل.

على النقيض، كان الإخوان قادرين على إقامة مراكز تدريب في الجامعات بقيادة عناصرهم، وبوجه خاص القائد الطلابي حسن دوح، وبالمثل في جامعة الأزهر، وتطوع بعض ضباط الجيش لتدريب تلك الوحدات؛ إجمالاً، كان الإخوان قادرين على إستخدام معسكرات التدريب (كما في الشرقية) وإستخدام الحشد الجماهيري بغرض تغطية عمليات جمع المعلومات المخابراتية، والتدريب شبه العسكري وعمليات التخريب.

مع ذلك، كان هناك ضباط جيش عاملين يقومون بالتدريب في مناطق معزولة، منهم عبد المنعم عبد الرؤوف الإخواني، قام بالتدريب في العريش لبعض المتطوعين، والعقيد رشاد مهنا الذي كان يراقب قيادة الجيش لصالح الإخوان بإستخدام وسائل لمواجهة التأثير البريطاني في الجيش. وعندما كان عبد المنعم عبد الرؤوف يعمل في رأس سدر على الشاطىء الشرقي للقنال، المواجه للسويس، قدم مساعدات للحصول على السلاح والذخيرة «كان عبد المنعم عبد الرؤوف من أوائل الرواد، تحمل رسالة المهمة الإسلامية داخل الجيش وحشد بعض الضباط حوله» وتطوع أيضاً للخدمة في وحدات الإخوان في حرب فلسطين قبل دخول الوحدات المصرية النظامية لساحة القتال، مع ذلك يظل المقدم محمود لبيب هو الممثل القيادي للإخوان وسط هيئة ضباط الجيش، ولقد تعاون صلاح سالم وعبد الحكيم عامر الضابطان البارزان في حركة الضباط الأحرار مع الإخوان المسلمين بإمدادهم بالذخائر ونقلها للفدائيين في القنال عندما كانا يخدمان في رفح بعد حرب فلسطين، وإنغمس الرائد محمود رياض (الذي أصبح أميناً عاماً للجامعة العربية عام ١٩٧٦) في عمليات الإخوان بمنطقة

القناة، وقام الضابط عبد الفتاح غنيم بمهمة الإتصال بين هؤلاء الضباط والإخوان المسلمين، وشارك أيضاً أبو المحاسن عبد الحي، معروف الحضري، حسين حمودة، بينما شارك كل من كمال الدين رفعت، صلاح هدايت، حسن التهامي، وعبد الناصر نفسه في عمليات الإخوان من خلال رائد البوليس صلاح شادي القيادي الإخواني، وشاركوا في خطة لإغراق سفينة لإغلاق القناة، وفشلت خطتهم لأسباب فنية.

في الفترة ما بين ٤٦ ـ ١٩٥١ إنغمس عدد أكبر من الضباط في العمليات السرية ضد بريطانيا والتي كان يسيطر عليها الإخوان سياسياً وإدارياً، فلقد سيطر الإخوان بحملتهم السياسية المكثفة والجيدة التنظيم، وإجتاحت البلاد لتفرض على كل الجماعات المعارضة التعاون معهم. يؤكد الشريف على سبيل المثال أن ضباط الجيش كانوا معزولين عن «حركة المقاومة الشعبية»، ودفعتهم حملة الإخوان الناجحة للإنضمام للتيار العام «لقد وحدت قضية قناة السويس الجيش والحركة الشعبية، ودفعتهم لبدء الحركة داخل الجيش» ويلمح أيضاً بأن عبد الناصر حتى بعد الثورة إستخدم الإخوان في منطقة القناة حتى توقيع إتفاقية الجلاء مع بريطانيا في أكتوبر ١٩٥٤، وإشتكى الشريف بأنه إبان الأيام العجاف للضباط الأحرار ساعد الإخوان عبد الناصر ورفاقه بإخفاء الأسلحة وتخزينها لهم؛ فيما بعد، عند إصطدام الإخوان مع الثورة حول إتفاقية الجلاء مع بريطانيا، إستخدم عبد الناصر تلك المعلومات وإرتباطه القديم بهم لتلويثهم والتشهير بهم.

ليس من العدل والإنصاف والنزاهة مهما كانت مبالغات الناطقين بإسم الإخوان، أن ينكر حقيقة أن تنظيم الإخوان النشط وبرنامجه الفعال أسس بديلاً جذاباً للتحرر السياسي، وطريقاً وجسراً نحو السلطة للعديد من المصريين وخصوصاً ضباط الجيش. فالإخوان كانوا حركة شعبية أصيلة ربما الحركة الوحيدة في تاريخ مصر الحديث ذات قابلية شعبية متزايدة دائماً. في الفترة من ٤٦ ـ ١٩٥٢، روعت أنشطتهم وبثت الرعب في نفوس كثيرين، خصوصاً النظام وأولئك الطامحين للإطاحة به، وتحديداً الضباط الأحرار. هكذا أخبر الملحق العسكري الهندي في تقريره نصف السنوي ١٥ يوليو ـ ١٢ ديسمبر ١٩٥٠ الحكومة الهندية بأن الإخوان نشطون داخل حلقات الضباط الصغار في الجيش المصري، إستغلوا حرب فلسطين والأسلحة الفاسدة وفضيحتها، وزار منقباد حيث القوات العائدة من الفالوجا، العام الماضي ووجدها في سخط صريح. وسمع أحاديث صريحة عن فساد الملك والتواطؤ بين الوفد والإخوان حيث سمحت حكومة الوفد للإخوان بمحطة إذاعة سرية، وتغيير إسمهم للإتحاد الإسلامي.

عندما أدرك عبد الناصر في عامي ١٩٥٠ ـ ١٩٥١ إمكانية الإطاحة بالنظام بإنقلاب

عسكري، كان يدرك خطورة نجاح حركة دينية سياسية. كان مفهومه للسلطة، تلك الصيغة التي إستقاها من دعاية مصر الفتاة في الثلاثينات، والتي إستكملها الإخوان، لكنها تمحـورت عنده في مفهوم شخصي جداً، يمكنها الإستناد إلى حشد الجماهير غير المنظمة سياسياً، وسيطرة الجيش على الدولة والمجتمع وإقصاء كل الجماعات الآخرين، ولا يسمح بوجود حـركة عـالية التنظيم واسعة الإنتشار مثل الإخوان لتتنافس معـه على جـذب ولاء الجماهـير، وعدم وجـود وسيط غير مريح وغير موثوق به، وربما منافس له.

الوسيط مع الجماهير في عصر الإذاعة، والترانزستور والتليفزيون كما حدد محمد حسنين هيكل لم يعد له دور.

الباب الثاني

الوصول الى السلطة

الفصل الخامس

جذور تنظيم الضباط الأحرار

إدعت معظم الجماعات الراديكالية شرف بدء زرع الخلايا السرية داخل ضباط الجيش المصري، ومع ذلك يتفق الجميع على أن العمل السري بدأ عام ١٩٣٩. وزعم محمد عبد الرحمن حسين أن عبد العزيز علي أحد قيادات الحزب الوطني أسس جماعة سرية كانت على علاقة بالقوات الجوية عام ١٩٤٠، وكان السادات ضمن أعضائها، وألمح هو نفسه لأنشطة الإخوان المسلمين وتأثير المناضل المعادي لبريطانيا الفريق عزيز المصري، الذي نظم ضباط الطيران في محاولة للتعاون مع الألمان والإيطاليين ضد الإحتلال البريطاني.

وكتب أحمد حمروش عن تشكيل مجموعة سرية عام ١٩٣٩، مكونة من سبعة ضباط: عبد اللطيف البغدادي، حسن إبراهيم، حسين ذو الفقار صبري، عبد المنعم عبد الرؤوف، وجيه أباظه، أحمد سعودي، وحسن عزت، وإنضم إليهم أنور السادات فيما بعد، كان هؤلاء الضباط «منبهرين ومتأثرين بالتنظيم النازي والدعاية الألمانية، وإعتبروا الإنتصارات المبكرة للسلاح الألماني وكأن إنتصار ألمانيا هو النتيجة النهائية».

مع ذلك، لم تكن جهودهم لصالح الرايخ الألماني ناجحة، رغم الإدعاء بأن الفريق عزيز المصري كان قد خطط لتمرير خطة الدفاع البريطانية عن مصر إلى الإيطاليين، وبعدئذ تعاون أنور السادات في القاهرة مع إثنين من جواسيس المخابرات الألمانية (هانز أبللر، ساندي مونكستر) ولم تنجح خطتهم، واعتقل الثلاثة(*).

كان هناك أيضاً حوادث متفرقة للتخريب في الصحراء الغربية قام بها ضباط مصريون، مثل محاولة الصاغ مجدي حسنين الذي إختطف سيارات نقل فرنسية محملة بالقنابل اليدوية، ومتفجرات مررها إلى حسن عزت عضو مصر الفتاة لإستخدامها فيما بعد في الأربعينات، في عمليات التفجير بالقاهرة، كان ثمن فشل هذه العمليات هو سجن هؤلاء الضباط أو طردهم من الجيش، أو نقلهم لمواقع بعيدة في السودان.

(*) كانت الراقصة حكمت فهمي هي أداة الإتصال بين الجواسيس الألمان، الذين كان أحدهم (أبللر) مصري النشأة حيث كانت أمه متزوجة من محام مصري، وبين أنور السادات، وكانت مهمته إصلاح جهاز الإرسال (اللاسلكي) من عوامة حكمت فهمي، وتم الكشف عنها عن طريق فتاة ليل يهودية (المترجم).

في ٤ فبراير ١٩٤٢، سلم المندوب السامي البريطاني سير مايلز لامبسون إنذاراً للملك فاروق يطالبه بتعيين حكومة برئاسة مصطفى النحاس باشا، زعيم حزب الوفد، وعندما لم يستجب الملك، حاصرت وحدات عسكرية ودبابات بريطانية قصر عابدين، وإقتحم لامبسون مكتب الملك وبصحبته الجنرال ستون قائد القوات البريطانية في الشرق الأوسط، وقرأ عليه مذكرة تطالب بتنازله عن العرش، وتدخل رئيس الديوان الملكي أحمد حسنين وتوصل إلى حل للأزمة عندما وافق الملك على دعوة النحاس باشا لتشكيل الحكومة، وعرفت بحادثة قصر عابدين، وأثارت غضب ضباط الجيش، ولقد إنبهر الضباط الشبان برفض ومعارضة محمد نجيب للإنذار البريطاني للملك، وقدم إستقالته، وعرض عبد اللطيف البغدادي وضابطان آخران على أحمد حسنين باشا، إغتيال «الخائن» النحاس باشا، زعيم الوفد، لكن التأثير الهام الباقي لهذا الحادث، هو تزايد الشعور بالسخط وسط ضباط الجيش، وشكل القصر تنظيماً موالياً للملك داخل الجيش، كان ضمن أعضائه البارزين أنور السادات، مصطفى كامل صدقي، كمال الدين رفعت(*)، وعرف بالحرس الحديدي. وعمل الملك من جانبه، بإعتباره الجريح ورمز السيادة الوطنية، على إقتناص الفرصة للتودد لضباط الجيش، وتردد على نادي الضباط في الزمالك بأمل زيادة شعبيته.

رغم أن المجموعات السرية في الجيش كانت تحت تأثير الجماعات الوطنية المتطرفة (مصر الفتاة، الحزب الوطني، الإخوان المسلمين) وكانوا «موالين للملك وللوطن» بحيث يمكننا القول إنهم لم يغتربوا كلية عن النظام السياسي. بحلول عام ١٩٤٤، أدت الهزيمة الألمانية المروعة في الحرب العالمية إلى إبتعادهم عن النظام الذي تخلخل وإرتبك، وبدأت مرحلة الإضطراب السياسي المدني (٤٤ ـ ١٩٤٧) كان يقودها الإخوان المسلمون أساساً وبعض التشكيلات الجديدة لليسار، خصوصاً في أوساط الطلاب والعمال والمثقفين. ونشطت تلك الجماعات الراديكالية السياسية وسط ضباط الجيش.

في كتابه «أسرار الثورة»، ورغم ضبابية معلوماته وأسلوبه، يؤكد أنور السادات حقيقة وجود عدة جماعات سرية في الجيش قبل عام ١٩٤٥، كانت جميعها معادية للإحتلال البريطاني، على سبيل المثال، مجموعة الحزب الوطني بقيادة عبد العزيز علي، ومجموعة الإخوان المسلمين.

(*) لم يذكر أحد من أعضاء تنظيم الضباط الأحرار أن كمال الدين رفعت إنضم للحرس الحديدي، رغم أنه كان ضابطاً في الحرس الملكي، لكن عضوية أنور السادات في الحرس الحديدي شائعة وموثوقة وكان تجنيده للتنظيم الحديدي من خلال الطبيب الخاص للملك يوسف رشاد، والذي أعاده للجيش بعد فصله (المترجم).

طبقاً لكتاب السادات «أسرار الثورة» فإن الفترة بين فبراير ١٩٤٢، ١٩٤٥، تصاعد النشاط الثوري في الجيش وداخل المنظمات الشبابية في مصر، وعلى سبيل المثال، إجتمعت مجموعة من الضباط في منزل بالزيتون بالقاهرة، بقيادة كمال الدين حسين المتعاطف مع الإخوان، وخططوا لعمليات تخريب وإغتيال سياسيين، ضمت المجموعة ضباطاً من الطيران والأسلحة والذخيرة والخدمات، وأختير السادات للقيام بمهمة الإتصال بينهم وبين الجماعات المدنية السرية المسلحة، وكان ضمن تلك المجموعة الطيار العسكري أحمد سعودي وهو أحد أعضاء مصر الفتاة، ووجيه أباظة، حسن عزت، وعبد اللطيف البغدادي، وكانوا يلتقون أيضاً بالمقاهي، وجندوا الطلاب وقاموا بتدريبهم على إستخدام الأسلحة والمتفجرات، وركزوا على مدارس الخديوية وفؤاد الأول، والسعيدية، لشهرتها بالحماس الوطني بين طلابها، وأيضاً طلاب كليات الحقوق والهندسة وخططوا للهجوم على المعسكرات البريطانية في المعادي، مصر الجديدة، قصر النيل، وإختطاف شخصيات عسكرية بريطانية من الشوارع، وإخترقوا السلك الدبلوماسي، ورغم هذا النشاط، إفتقروا لهدف سياسي واضح، كانوا ببساطة مهمومين بطرد الإحتلال البريطاني من مصر، ومع ذلك، وفقاً لرواية السادات، كانوا جميعاً يتفقون مع رأي الفريق عزيز المصري «لا تحرر بدون إنقلاب عسكري».

في الواقع، كان الضباط الشبان يعتبرون الفريق عزيز المصري «إصلاحي عسكري وثائر يؤمن بالعسكرية الألمانية وتفوقها التقني» وإنبهروا بعدائه للإحتلال البريطاني وإنبهروا أيضاً بالمسحة الصوفية والرومانسية المحيطة بشخصيته كجندي ثائر، أسس في شبابه منظمة سياسية سرية للضباط العرب في الجيش العثماني.

إبان تلك الفترة من الإضطراب السياسي ٤٥ ـ ١٩٤٧ كان الإخوان المسلمون هم الذين يمارسون التأثير الهام على توجهات ومفاهيم هؤلاء الضباط. على سبيل المثال، أثناء حرب فلسطين تعاون البغدادي، حسن إبراهيم، كمال الدين حسين وآخرون مع الإخوان. وأقاموا روابط وثيقة مع مفتي فلسطين وفوزي القاوقجي القائد اللبناني لمتطوعي «جيش الإنقاذ» في فلسطين. والأهم، لقد ساعد الإخوان المسلمون على غرس كراهية ومعارضة كل الأحزاب السياسية في وجدانهم ومعاداة الديمقراطية الحزبية، وتشابكت هذه الآراء ودعمت ما إستقر في أذهانهم وهم طلاب في المدارس الثانوية من الجناح المسلح للحزب الوطني ومصر الفتاة. بوجه عام، غرست كل هذه الإتجاهات رؤية محافظة للعالم وإتجاهاً متشدداً معادياً للغرب والحفاظ على كرامة مصر، في إعتقاد هذا الجيل من الضباط.

إدعى أنور السادات أنه إلتقى الشيخ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين، لأول مرة، في مقر سلاح الإشارة بالمعادي خارج القاهرة في صيف ١٩٤٠، كان السادات

وقتها ملازماً أول، وكان حسن البنا قد حضر بدعوة من أحد الجنود، وهذه الواقعة تؤكد تغلغل الإخوان في كل قطاعات الجيش. كتب السادات في كتابه «في تلك الليلة بدأت سلسلة من الأحداث لم يسمع المصريون عنها إلا قليلاً، بعضها كان سرياً، والآخر سمع صوت إنفجار القنابل وبعض عمليات التخريب» وذهب السادات لمقابلة حسن البنا في منزله، والذي رتب لقاء السادات مع عزيز المصري، الذي كان قد طرد من الجيش، وكان مختبئاً في منزل طبيب من الإخوان المسلمين بالسيدة زينب.

منذ ١٩٤٠ وسع الإخوان المسلمون جهود تجنيد ضباط الجيش، لكنهم عجزوا عن السيطرة بشكل كامل، بل أصبح لديهم بعض الضباط في مراكز بارزة مثل عبد المنعم عبد الرؤوف في القوات الجوية، وكمال الدين حسين في المدفعية، ورشاد مهنا، وإستفادوا من قيادتهم للمقاومة في حرب فلسطين في تجنيد المزيد من الجنود، لكن بعد الحرب، بدأ خط إضمحلال قوة الجماعة، فلقد أدت الهزيمة إلى فقدان الضباط لثقتهم في النظام القائم ككل، وتزايد التوتر بين الضباط الشبان وقياداتهم، وأثمرت بذور حركة الضباط الأحرار وإتسعت علاقتها بكل الجماعات السياسية في تحدٍ واضح للسلطة.

فرضت أحداث الفترة من ١٩٤٩ إلى ١٩٥٢ على عدد من ضباط الجيش، الإعتماد على حركة سياسية من صنعهم، تكون مستقلة عن كل التنظيمات السياسية في مصر، فلقد ساد تململ عام في أوساط الضباط ضد الوضع الراهن بعد حرب فلسطين لكنه لم يتسم بوجهة أو صيغة محددة، وفي تلك الفترة الحرجة، ٤٩ ـ ١٩٥١، لعب جمال عبد الناصر دوراً شخصياً بارزاً في جمع شمل الضباط من إتجاهات سياسية مختلفة.

يفترض أنور السادات أن جمال عبد الناصر قد إنغمس في العمل السري داخل الجيش في نهاية ٤٤ ـ ١٩٤٥، لكن في أدوار ثانوية، وأنه تولى مسؤولية حركة سرية في نوفمبر ١٩٤٤ لكنه لم يبدأ ممارسة جهوده التنظيمية بجدية إلا بعد حرب فلسطين في ربيع ١٩٤٩.

في عام ١٩٤٩، تشكلت اللجنة التأسيسية مكونة من خمسة ضباط: عبد الناصر، حسن إبراهيم، خالد محيي الدين، كمال الدين حسين، وعبد المنعم عبد الرؤوف، وجميعهم إرتبط بالإخوان المسلمين أو مصر الفتاة أو الحزب الوطني لفترة معينة؛ كانت اللجنة تحت إشراف عبد الناصر الذي أصر على إستقلالها الكامل عن كل الجماعات الأخرى سواء داخل أو خارج الجيش؛ على الأخص، كان عبد الناصر مصمماً على عزل الحركة عن الإخوان المسلمين، بينما كان الإخوان يحاولون تجنيد أكبر عدد من ضباط الجيش عن طريق كبار مندوبيهم، المقدم محمود لبيب؛ وفي بداية ١٩٥٠، إنضم للجنة التأسيسية للضباط الأحرار كل من عبد اللطيف البغدادي، أنور السادات، عبد الحكيم عامر، الأخوان صلاح وجمال

سالم، وفي نفس الوقت تحولت إلى لجنة تنفيذية لحركة الضباط الأحرار، وهو الإسم الذي ظهر للمرة الأولى في المنشورات السياسية التي وزعت في فبراير ١٩٥٠، وأكد هذا البيان على ولاء الجيش للأمة، وطالب بإحداث إصلاح جذري للدولة والمجتمع.

يمكن للمرء إعتبار تلك الفترة بداية الإعلان الرسمي لإستقلال الضباط الأحرار عن باقي التنظيمات السياسية، ولقد تجلى في وجود اللجنة التنفيذية، رغم إحتفاظ بعض أعضائها بإرتباطهم مع تلك الجماعات، مثل علاقة خالد محيى الدين بتنظيم «حدتو» الماركسي، وكمال الدين حسين وعبد المنعم عبد الرؤوف مع الإخوان المسلمين، وأنور السادات مع القصر الملكي، ولقد أظهر عبد الناصر مهارته وذكاءه السياسي بالإحتفاظ بصلات مع العديد من التنظيمات السياسية، خصوصاً، الإخوان المسلمين والوفد واليسار.

إتسمت الفترة (٤٦ ـ ١٩٤٩) بالإضطراب السياسي والسخط العام في مصر بعد الحرب مباشرة، وأدت إلى مرحلة المظاهرات الجماهيرية والإضرابات المتتالية والعنف، وحملة المقاومة ضد الجيش البريطاني في القناة، وحرب فلسطين، وتغلغلت آثار كل تلك الأحداث والمؤثرات داخل ضباط الجيش، وأصبح النقاش السياسي بين أصحاب الرتب الصغيرة شائعاً، مما أتاح لحركة الضباط الأحرار فرصة الإنتشار لأوسع مدى.

بعد ١٩٤٧، لم يعد هناك بعثة عسكرية بريطانية لتحظر النشاط السياسي للضباط المصريين، ومع تزايد إغترابهم السياسي عن الملك والنظام السياسي، أصبح عملهم التحريضي ممكناً، وإكتسبت فكرة الإنقلاب العسكري ضد السلطة مصداقية أكثر بعد وقوعها في عدد من البلدان العربية، وشيوع فساد النظام السياسي وتلويث سمعته، وصعوبة مراقبة جهاز المخابرات العسكرية الوليد للجماعات السرية في الجيش، بينما كان جهاز أمن الدولة المدني يتشكل أساساً من البوليس السياسي المشغول بمراقبة الأنشطة المعارضة للإخوان والجماعات المتطرفة الأخرى، وهكذا، تمكن الضباط الأحرار من إختراق المخابرات العسكرية.

ساعدت سياسة حكومة حزب الوفد الليبرالية (٥٠ ـ ١٩٥١) على تقوية حركة الضباط الأحرار وتطوير قدراتها التنظيمية، وتزايد منشوراتها الدعائية السرية، والتي كان هدفها الرئيسي «الجيش وولاؤه للأمة» وأصبح التأثير الماركسي أكثر وضوحاً في تلك المنشورات، بالهجوم على مفاسد الملك والمطالبة برفع مرتبات الجنود؛ في نفس الوقت، كان الضباط الأحرار جاهزين لمساعدة أي جماعة تقاتل ضد البريطانيين في القنال، وتزويدهم بالسلاح والذخيرة ومعسكرات للتدريب.

إستثارت أنشطة الضباط الأحرار ردود أفعال القصر والحكومة، ولم يعد هناك مفر من الصدام مع قيادات الجيش والملك، وحدث الصدام أثناء إنتخابات نادي الضباط في نهاية ١٩٥١، حيث فاز مرشحو الضباط الأحرار برئاسة اللواء محمد نجيب، وجسدت تلك الإنتخابات مواجهة علنية بين الملك والضباط الأحرار، لكنها تلاشت خلف مشاهد المظاهرات الجماهيرية في القاهرة في نوفمبر وديسمبر ١٩٥١ ضد بريطانيا، بعد إلغاء حكومة الوفد لمعاهدة ١٩٣٦ من جانب واحد بشكل درامي وديماغوجي، ونظم الإخوان ومصر الفتاة هجمات على وسائل النقل العام، والملاهي، البارات، ودور السينما، في ديسمبر ١٩٥١، ليضيفوا عاملاً جديداً للموقف الأمني المتدهور، وقدموا تجربة لما سيجري يوم السبت الأسود، عندما أحرق الغوغاء القاهرة.

كان إنعكاس أحداث يوم السبت الأسود (٢٦ يناير ١٩٥٢) على الضباط الأحرار فورياً ومروعاً، حيث أوصى بعضهم بالعمل الفوري، بينما أكد آخرون مثل خالد محيي الدين على سبيل المثال، على ضرورة تنظيم حملة سياسية منظمة وقوية، وبمعاونة أحمد فؤاد رفيق خالد في تنظيم حدتو، الذي لعب دوراً رئيسياً في إعداد مشروع برنامج النقاط الست للثورة في فبراير أو مارس ١٩٥٢ . وأصبح الضباط الأحرار الآن يدعون لأهداف ثورتهم المتوقعة:

١ - القضاء على الإستعمار وأعوانه من المصريين.
٢ - القضاء على الإقطاع.
٣ - إنهاء إحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم.
٤ - إقامة العدل الإجتماعي.
٥ - بناء جيش وطني قوي.
٦ - إقامة حياة ديمقراطية.

حتى تلك الفترة، كان الضباط الأحرار يجسدون حركة مستقلة تتبنى الدعوة السرية لأفكار وطنية وتقدمية راديكالية، مثل ربط النظام الحاكم في مصر بالإستعمار البريطاني الأمريكي، وكانوا يعتقدون «بالإنقلاب»، خصوصاً عندما أعتقل بعض الضباط المرتبطون بحركتهم أثناء أحداث يوم السبت الأسود، وكان محمد لبيب نفسه تحت المراقبة. في تلك الفترة، أعاد الضباط الأحرار تنظيم حركتهم، حيث أصبح هناك مركز واحد لأنشطتها في القاهرة يتكون من: (عبد الناصر، خالد محيي الدين، زكريا محيي الدين، حسين الشافعي، مجدي حسنين، وأمين شاكر) ومركز آخر في العريش مقر الجيش المصري والقوات الجوية في سيناء (مكون من: يوسف صديق، عبد الحكيم عامر، صلاح وجمال سالم) وطهروا الحركة

من أعضائها مزدوجي الولاء بين الجيش والجماعات السياسية المدنية، وهكذا أبعد عبد المنعم عبد الرؤوف لعلاقته وإرتباطه بالإخوان.

وبدأت إرهاصات الخلاف والجدال المستقبلي حول علاقات الضباط الأحرار بالمخابرات الأمريكية في تلك الفترة؛ هل لقي الضباط الأحرار تشجيع الأمريكيين في إعدادهم للقيام بالثورة؟ في إطار تصاعد الحرب الباردة وضعف الوضع البريطاني في الشرق الأوسط، كانت أمريكا قلقة بشأن تأمين المصالح الغربية في مصر، ومما ضاعف من قلقها إندلاع المظاهرات والإضرابات وعمليات التفجير التي قام بها العناصر والجماعات السياسية المتطرفة، وخشي الأمريكيون حدوث إنتفاضة شعبية، أو ثورة ذات مسحة شيوعية.

من الطبيعي وجود علاقات رسمية بين أجهزة المخابرات للدول الصديقة، مصر والولايات المتحدة، في ذلك الوقت، وكان هناك أيضاً علاقات شبه مخابراتية بين الدبلوماسيين الأمريكيين في القاهرة والصحفيين المصريين (مثل مصطفى أمين ـ أخبار اليوم) وبالمثل بعض كبار رجال الدولة والوزراء (مثل حافظ رمضان، مرتضى المراغي، مصطفى مرعي، أحمد حسين، السفير المصري في واشنطن)، (وكان أحد الضباط الأحرار في المخابرات المصرية، «عثمان نوري» يتتبع أخبار ومعلومات المتعاونين مع المخابرات الأمريكية).

في البداية، تبنى الأمريكيون إمكانية القيام «بثورة سلمية» بقيادة الملك فاروق بأمل إحباط أي إنتفاضة شعبية متطرفة ذات توجهات وأهداف غير موثوق بها؛ ففي بداية ١٩٥٢، تولى «كيرميت روزفلت» أحد كبار مسؤولي المخابرات الأمريكية التخطيط لتنفيذ تلك المهمة الخاصة، وعلى الفور، أدرك أنها مهمة غير واقعية وغير ممكنة، وحتى مارس ١٩٥٢ كان قد أقام إتصالات وثيقة ومحادثات إستكشافية مع مبعوثي اللجنة التنفيذية للضباط الأحرار. بحلول مايو ١٩٥٢، أصبح روزفلت مقتنعاً بأن الضباط الأحرار سيقومون بثورة لن تهدد المصالح الأمريكية والغربية في الشرق الأوسط، وأن الضباط الأحرار يجسدون البديل الوحيد الموثوق به لنظام الملك فاروق، ومن جانبهم، إكتسب الضباط الأحرار حياد الأمريكيين تجاه محاولاتهم الإستحواذ على السلطة.

أوصلت ثورة يوليو ١٩٥٢ جيلاً جديداً من الضباط والمدنيين إلى السلطة في مصر، وإتسمت بالسمة الراديكالية السياسية والعنف الذي غرسته مصر الفتاة، والإخوان، والحزب الوطني في العقود السابقة وأبعدت عن الجيش كل القيادات القديمة؛ كان محمد نجيب (عمره ٥٢ عاماً عند قيام الثورة) هو القائد الوحيد المرتبط بالضباط الأحرار، وجدير بالملاحظة حقيقة أن الإنقلابات العسكرية في بلدان الشرق الأوسط الأخرى (العراق عامي ١٩٣٦،

١٩٤٠، وسوريا عام ١٩٤٩) كانت بقيادة ضباط كبار، بينما ثورة يوليو في مصر قام بها ضباط صغار تتراوح أعمارهم بين ٢٨ حتى ٣٥ عاماً، وتمتع بعض قيادات اللجنة التنفيذية (مجلس قيادة الثورة) ببطولات إستثنائية في حرب فلسطين، وتحقيق تقدم سريع ومبكر في السلك العسكري، حيث قام بعضهم بالتدريس في كلية أركان الحرب، وبوجه عام، تمتعوا بتدريب أكاديمي وميداني أفضل من كبار الضباط وقادتهم وقتها، لكن لم يكن بين الضباط الأحرار من ينتمي لعائلات واسعة الثراء، أو تتمتع بميراث عسكري بإستثناء محمد نجيب. كان الضباط الأحرار، عموماً، بيروقراطيين عسكريين مجتهدين؛ أو كما وصفهم مايلز كوبلاند: «رجال جيدو التنظيم».

قد يكون أمراً إستثنائياً سيطرتهم على السلطة بعد مرور ثلاث سنوات فقط على تأسيس تنظيمهم (٤٩ ـ ١٩٥٢). والأكثر غرابة تلك الحقيقة المثيرة عن إنتشار أعضاء التنظيم في أوساط جميع أسلحة الجيش وفروعه، رغم تعدد وإختلاف إتجاهاتهم السياسية، وإفتقادهم لوعي سياسي موحد، لكن كان هناك رغبة مشتركة بينهم لتغيير النظام، فضلاً عن الرابطة الجيلية التي وحدت بينهم، بالإضافة إلى الأصول الإجتماعية والإقتصادية المشتركة، والمؤثرات المشتركة على تشكلهم السياسي المبكر، وهكذا جاء ظهور عبد الناصر بينهم، طبيعياً، فهو الأكثر إنضباطاً وطموحاً في السلطة، وقدرة على القيادة.

كان أحد العوامل التي ساعدت الضباط الأحرار للسيطرة على القوات المسلحة بسهولة، هي حقيقة أن كبار القادة عندئذ لم يكونوا يشكلون «نخبة» أو صفوة عسكرية متميزة تماماً على المسرح السياسي؛ كانوا جزءاً من النخبة الحاكمة أو المدراء، لكنهم ليسوا بالضرورة جزءاً من الطبقة الحاكمة، لهذا لم يكن متوقعاً دفاعهم عنها بكل قوتهم.

ولم يسيطر على الجيش حتى تلك الفترة أي من الوفد، أو كبار ملاك الأراضي، أو النخبة الجديدة من رجال المال، أو رجال الصناعة والشركات، والأهم من ذلك، كانت الغالبية العظمى من الضباط ذوي أصول شعبية فقيرة أو برجوازية صغيرة، لم ينتم أحدهم إلى أصول عمالية أو فلاحية، أو رجال الدين الرسمي؛ كان الضباط الأقباط يشكلون أقلية، لذا لم يكن ضمن الضباط الأحرار سوى واحد فقط. بعد ١٩٣٦، تدفق على الجيش تيار من الضباط أبناء الطبقات الدنيا، نفس الأصول الإجتماعية التي جاء منها عناصر الإخوان ومصر الفتاة، لكن هؤلاء جسدوا في نفس الوقت، جيلاً من الشباب الطموح إستفاد من الإتساع المتسارع للتعليم الثانوي في مصر.

ظل ضباط الجيش لفترة طويلة تحت سيطرة الحكم الملكي وفي عزلة عن المجتمع

وإنتفاضاته السياسية، يقومون بأداء المهمة الرئيسية للحفاظ على النظام العام والأمن ضد المنشقين والخوارج، والمدنيين المتظاهرين. كانوا مظلة النظام ضد الفوضى والعصيان والثورة. بهذا المعنى، لم يشكل الضباط نخبة طليعية في أجواء مصر الراديكالية سياسياً، ربما يكون هذا هو السبب في قيام حركة الضباط الأحرار بالثورة في يوليو ١٩٥٢ منفردة، دون مشاركة أو مساعدة أي تنظيم سياسي مدني من المعارضين للنظام القائم، وهي كانت على مستوى جيد من التنظيم. بل إعتمد الضباط الأحرار على السرية والإنقلاب المفاجىء في الوقت المناسب عندما يكتمل إغتراب وإنفصال الشعب عن حكامه، ويحتضن ويؤيد المنقذين الجدد، فوق كل شيء، بالسيطرة الكاملة على الجيش، ثم يمكنهم فرض إرادتهم على باقي المجتمع.

الفصل السادس

عبد الناصر وثورة الجيش

عندما هب عبد الناصر ليقود إنقلابه العسكري، كان قد أمسك بأطراف أزمة جيله في مصر، تلك الأزمة في تاريخ الأمم التي يستخف بها السياسيون السطحيون، أزمة الإنفصال بين النظام المفروض في جانب، ووضعية وطموحات جيل جديد في جانب آخر. كانت أزمة حادة، بسبب الإرتباط بين الظروف الموضوعية والذاتية التي تصوغ عادة التحول الراديكالي في حياة البشر، فلقد أوجدت نهاية الحرب توازناً جديداً في القوى على المسرح الدولي: أصبح التحرر من الإستعمار حتمياً. كان الوجه السياسي والإقتصادي لمنطقة الشرق الأوسط يسير في إتجاه التغيير، وإتسمت الأزمة المصرية بملامح ثلاث:

- النتائج النهائية بعيدة المدى لحادث ٤ فبراير ١٩٤٢.
- تأثير السخط السياسي العام في الأربعينات.
- الهزيمة في حرب فلسطين ١٩٤٨.

بعودة الوفد إلى الحكم في يناير ١٩٥٠، وحاجته لتجديد وإستنفار فعاليته بالإستجابة للمشاكل الإقتصادية والسياسية الملحة، والإستجابة لمطالب جيل حاد النزعة داخل الحزب؛ إستهل فترة غير مسبوقة من الحرية السياسية، رفعت الرقابة عن الصحف، وبالتالي تزايدت فعالية النشاط السياسي بشكل ملحوظ للجماعات السياسية القديمة والجديدة في اليمين واليسار، تحولت مصر الفتاة إلى حزب إشتراكي، الإخوان المسلمون، والماركسيون، بلغت ذروة هذا النشاط ونهايته يوم السبت الأسود ٢٦ يناير ١٩٥٢.

في هذا المناخ القلق المضطرب، وقفت حركة الضباط الأحرار رافضة الإندفاع والتهور والمخاطرة بإستخدام العنف، تنتظر فرصة ملائمة للتحرك، بطبيعتها كانت حركة محدودة داخل أوساط ضباط الجيش، كان يجب عليها البقاء حذرة حتى لا تخاطر بحياة عناصرها، وأيضاً كانت في مأمن نسبي في ظل مناخ الحوار السياسي، وتمكن ضباطها من إقامة علاقة وثيقة مع المعارضة الجديدة للوضع الراهن ومعارضة السياسيين القدامى والحكم الملكي في كل الصحف.

كان هناك دائماً من وقت لآخر، عروض وإقتراحات على بعض الضباط لإغتيال

بعض السياسيين البارزين وكبار قيادات الجيش، والإشتراك في عمليات تخريب المعسكرات البريطانية وإغتيال الضباط البريطانيين، لكن عبد الناصر كان يرفضها دائماً لصالح منهج تدعيم وتقوية الحركة داخل الجيش، ومن المحتمل أن عبد الناصر قد رفض العنف لأنه حتى عام ١٩٥٠ ـ ١٩٥١، لم يكن هناك حركة منظمة قوية للضباط.

حتى ١٩٤٩، قرر عبد الناصر الإحتفاظ بدوره في حركة الضباط الأحرار سرياً، وكما كتب السادات «صمم على أن يمثله عبد الحكيم عامر في كل إتصالات الحركة مع باقي الضباط» والأهم تصميم عبد الناصر الحفاظ على إستقلالية حركة الضباط الأحرار، وقاوم حركة تجنيد الضباط للإخوان المسلمين بقيادة المقدم محمود لبيب، وإكتفى بالحفاظ على قيام عبد المنعم عبد الرؤوف كقائم بالإتصال مع الإخوان.

كان إهتمام عبد الناصر هو تلقين ضباط الجيش أهمية التنظيم السياسي، وللتغلب على عزلة حركتهم عن الجماعات الراديكالية الأخرى، ومع إندلاع المظاهرات الجماهيرية بعد ١٩٤٦، جاءت الفرصة للتعاون مع الجماعات الطلابية والعمالية والمنظمات الراديكالية في اليمين واليسار، وأدت حرب فلسطين إلى تجديد الروابط بين حركة ضباط الجيش والإخوان المسلمين، والطليعة الوفدية وفدائيي مصر الفتاة.

وصل تدهور الموقف السياسي في مصر إبان ١٩٥٠ ـ ١٩٥٢ حداً تعرض فيه النظام للهجوم من كل الإتجاهات المعارضة، خصوصاً الإخوان المسلمين ومصر الفتاة التي صارت الحزب الإشتراكي المصري، وأصبح النمط الإجتماعي السائد يتسم بتناقضات حادة، حيث يوجد عدد قليل من الأثرياء ثراء فاحشاً وملايين الفلاحين الأجراء الجوعى، ونزوح الكثير منهم للعيش في القاهرة، وتفاقم فساد البلاط الملكي وأصبح الملك محاطاً بمجموعة من القوادين المصريين والأجانب، وهناك حوالي مائتي ألف أجنبي يعملون في التجارة والبنوك، وشريحة ضئيلة من النخبة المصرية الجديدة من رجال الأعمال وأعداد متزايدة من خريجي الجامعات الطامحين في نصيب أكبر من الكعكة الإقتصادية، كان هناك قوات أجنبية على التراث المصري، القوات البريطانية في منطقة القناة. في النهاية، كانت الشعوب العربية في الهلال الخصيب في منعطف حاد بعد حرب فلسطين، بإختصار، كانت الظروف المحيطة بالثوار، ملائمة: تغير سريع، إنفجار سكاني، وإنتقال السكان من الريف إلى المدينة، والجميع يعاني مشقة الإفقار الإقتصادي.

إستثمر الضباط الأحرار كل إرتباطاتهم وعلاقاتهم داخل النظام، الذي يترنح الآن من الهجوم الجماهيري، والتنظيمات المتعددة لقوى المعارضة المتشرذمة، وصمم عبد الناصر على اقتصار العضوية في الحركة على الضباط الأحرار فقط، فهو لم يكن يثق في الإخوان بسبب

تعاونهم المبكر مع حكومة إسماعيل صدقي عام ١٩٤٦ في سحق الشيوعيين، وعلاقاتهم الوثيقة بالقصر الملكي.

في هذا المناخ السياسي حيث يطالب أحمد حسين علناً بالإطاحة بالنظام القائم، تمكن الضباط من تقدير مواضع الضعف وتقييم الإختبارات، والحفاظ على اللقاء مع الجماعات المعارضة خصوصاً الإخوان المسلمين دون الكشف لهم عن نواياهم، ولقد أصبح عدد من الضباط الأحرار نشطين سياسياً للمرة الأولى ضد النظام والبريطانيين من خلال تلك التنظيمات المدنية.

لقد تعرف عبد الناصر على ضباط الجيش الموالين للجماعات الراديكالية من خلال علاقاته الوثيقة إبان حرب فلسطين، وعمليات المقاومة للجيش البريطاني في منطقة القنال، ومن خلال موقعه كمعلم في العديد من مدارس الجيش: الكلية الحربية، مدرسة المشاة، مدرسة إدارة الجيش، كلية أركان الحرب، وأتيح لعبد الناصر فرص عديدة لتجنيد أعضاء جدد لتنظيم الضباط الأحرار، وسعى لإقامة علاقات مع الطليعة الوفدية، والتي كان أبرز أعضائها أحمد عبد الفتاح، الذي إلتقاه عبد الناصر لأول مرة عام ١٩٤٦ أو ١٩٤٩، ومن الماركسيين إرتبط بأحمد فؤاد عضو حدتو القيادي، من خلال خالد محيي الدين، ويوسف صديق، وإبراهيم طلعت العضو البارز في الطليعة الوفدية والصحفي بجريدة الجمهور المصري، وكان عضواً سابقاً في مصر الفتاة، وكانت شقيقته متزوجة من أحمد فؤاد، والجميع إستخدمهم عبد الناصر لخدمة أهداف تنظيمه.

بحلول عام ١٩٤٩، أدرك عبد الناصر عجز مصر الفتاة والإخوان المسلمين عن الوصول إلى السلطة، فلقد إستنفذ الإخوان طاقتهم في المقاومة بالقناة، وحرب فلسطين، وعمليات الإنتقام من قوات الأمن الحكومية (إغتيل المرشد العام حسن البنا في فبراير ١٩٤٩) بينما تعتمد مصر الفتاة على شخصية رجل واحد، أحمد حسين ولم يعد مؤيدوه، علي ماهر، صالح حرب، عزيز المصري، شخصيات مؤثرة في السياسة المصرية، كما كانوا في الثلاثينات أو إبان الحرب، لهذا قرر عبد الناصر تنظيم عمل هجومي ضد النظام القائم تقوم به حركة مستقلة، فلقد قيّم بشكل صحيح تحولات القوى داخل المنطقة العربية المجاورة، والرغبة الأمريكية لإجبار بريطانيا للجلاء عن مصر والشرق الأوسط، دلالات الحرب الباردة بين الشرق والغرب والتي أدت إلى سلسلة من المواجهات في اليونان، تركيا، إيران، تشيكوسلوفاكيا، برلين، وكوريا، وتبعاً للصحفي الوثيق الصلة به، محمد حسنين هيكل، فإن إهانة الكرامة الوطنية المصرية في حادث ٤ فبراير ١٩٤٢، المعروف بحادث القصر، وتأثير الإخوان المسلمين والجماعات الماركسية «كانت كلها الظروف التاريخية التي شكلت مصير

عبد الناصر وجعلت منه رمزاً لإستعادة الكرامة المفقودة والآمال الغائبة».

لا مجال للقول بأن عبد الناصر في عامي ١٩٤٩ أو ١٩٥٢، لم يعد يستمد رؤيته لمصر المقبلة، من مصدر عام ومشترك مع معظم تلك التنظيمات والجماعات، فلقد ظل نفس مصدره الذي إكتسبه من إرتباطه المبكر بمصر الفتاة والحزب الوطني في الثلاثينات، لكن الذي إختلف هو أسلوبه الإنقلابي، مفهومه للسلطة وإستخدامها، قراره بالإستيلاء على السلطة من خلال حركة متحررة من أية إرتباطات أو ترتيبات مع منظمات مدنية موازية، بهذا الخصوص، كان عبد الناصر شبيهاً بلينين في الحاجة الملحة لوجود تنظيم فعال منضبط.

هناك عوامل عديدة وفرت له المرونة في التخطيط، منها أعضاء تنظيمه ذوي النشاط والفعالية المتزايدة، وتعاونهم مع الجماعات المتطرفة، ووقوعهم في قبضة السلطات، مثل أنور السادات الذي سجن عام ١٩٤٢ (في قضية التجسس مع الألمان مع حكمت فهمي) وهرب من السجن عام ١٩٤٤، وعاد للسجن عام ١٩٤٧ (لإشتراكه في مقتل أمين عثمان)، وآخرون مثل البغدادي، عبد المنعم عبد الرؤوف، خالد محيي الدين، صلاح وجمال سالم، رشاد مهنا، وكمال الدين حسين، كانوا جميعاً بطريقة أو بأخرى مرتبطين بحركات سياسية، وبنفس الأهمية، تأتي حقيقة إدراك عبد الناصر لعدم فعالية الفريق عزيز المصري بإعتباره رجلاً من الحرس القديم، وهذا يفسر تردد عبد الناصر في لقائه حتى عام ١٩٥٠.

كان هناك جدال واسع بين الضباط الأحرار والثوريين المرتبطين بهم حول مسار الأحداث التي ستقود إلى ثورة يوليو ١٩٥٢، فلقد إدعى الإخوان المسلمون دوراً كبيراً في صنع عبد الناصر، حاكماً ثورياً لمصر، وادعى نفس الإدعاء مصر الفتاة، والطليعة الوفدية، وزعمت حدتو أن لها الإسهام الأكبر في تربية عبد الناصر سياسياً وتعميق وعيه الإجتماعي، ودائماً هناك من يزعمون أن عبد الناصر لم ينغمس في العمل السياسي العسكري قبل عامي ٥٠ ـ ١٩٥١، وأنه فقط إستغل الحركة، أو إندفع ليجني ثمار جهودهم بعد نضجها، كنوع من «إغتصاب ثورة ناقصة»، على سبيل المثال، كتب أنور السادات، في الستينات «أسرار الثورة»، ربما لم يكن أمامه خيار إلا إرضاء سيده، عبد الناصر، فلقد نسب معظم نجاحات التنظيم إليه.

على أية حال، هناك خلاف بين قصة عبد الناصر لحركة الضباط الأحرار، ورواية ثروت عكاشة، فقد كتب عبد الناصر في فلسفة الثورة:

«أتذكر، في أحد الأيام أثناء قرار الأمم المتحدة لتقسيم فلسطين في سبتمبر ١٩٤٧ (لاحظ أن قرار التقسيم صدر في نوفمبر ١٩٤٧) إلتقى الضباط الأحرار ووافقوا على دعم

المقاومة الفلسطينية، في اليوم التالي، ذهبت وطرقت باب منزل الحاج أمين الحسيني، مفتي فلسطين».

هكذا إلتقى عبد الناصر والمفتي عام ١٩٤٧، بينما كتب ثروت عكاشة أحد الضباط الأحرار وعضو الهيئة التأسيسية: «إنتهت حرب فلسطين بمساوئها وإيجابياتها. . . عادت القوات إلى مصر، وظهرت فكرة تنظيم الضباط الأحرار» وتتفق معظم المعلومات والمصادر على ظهور أول منشورات الضباط الأحرار السرية في نوفمبر ١٩٤٩، والتي كتبها عبد الناصر وحمدي عبيد، وطبعها ووزعها خالد محيى الدين.

فور إنتهاء حرب فلسطين، قرر بعض الضباط والأعضاء في المنظمات الراديكالية إغتيال القيادات السياسية المصرية، وأن يبدأوا بالنحاس باشا، وألقوا المتفجرات على منزله في نفس العام، وتؤكد المصادر العديدة على عدم موافقة عبد الناصر، لكنها لا تنفي علمه بالحادث، وأيضاً لم يشارك في محاولة إغتيال الفريق حسين سري عامر بعد ثلاثة أعوام.

قبل وفاته، أكد صلاح سالم أن الهيئة التأسيسية للضباط الأحرار تشكلت أول مرة في نوفمبر ١٩٤٩، وكان أعضاؤها:

عبد الناصر، عبد الحكيم عامر، صلاح وجمال سالم، عبد اللطيف البغدادي، خالد محيى الدين، السادات، حسن إبراهيم، عبد المنعم عبد الرؤوف، زكريا محيى الدين، حسين الشافعي، يوسف صديق وإنضم عبد المنعم أمين إليها فيما بعد، وشكلت هذه المجموعة مجلس قيادة الثورة عام ١٩٥٢.

ويزعم السادات في كتاباته أن أول خلية سرية في الجيش شكلها زكريا محيى الدين والسادات عام ١٩٣٨، وكانت حركة مقاومة لبريطانيا والنظام القائم في صفوف ضباط الجيش، وأنها مرت بمراحل ثلاث: الأولى في ١٩٤٠ ـ ١٩٤٢، حيث قاوم الضباط طبيعة العلاقات المصرية البريطانية أثناء الحرب وأعربوا عن غضبهم لإسقاط حكومة علي ماهر الموالية للمحور في يونيو ١٩٤٠ وإخراج بطلهم عزيز المصري من الجيش. في العام التالي، قرر السادات، البغدادي، حسن عزت، وجيه أباظه، وأحمد سعودي، مقاومة الرفض البريطاني لتمركز القوات المصرية في مرسى مطروح وخططوا لفرض الإنسحاب البريطاني من الصحراء الغربية عن طريق عمليات تخريبية لأجهزة إتصالهم، ولكن السلطات البريطانية تمكنت من نقل الضباط وتأمين إتصالاتها. مرة أخرى في فبراير ١٩٤٢، بعد حادث القصر، فكروا في تنظيم مظاهرات إحتجاج في نادي الضباط، وقرروا تحطيم النظام السياسي بقيادة الملك.

مسترجعاً أحداث تلك الفترة كتب عبد اللطيف البغدادي عام ١٩٥٣ :

«عندما كان الألمان على مشارف مصر، قررنا أنا وأحمد سعودي، حسن عزت، محمد وجيه أباظه (الجميع ضباط طيران) والملازم أول أنور السادات أن واجبنا يقتضي عمل شيء ضد بريطانيا، شكلنا تنظيماً سرياً في القوات الجوية لتخريب خطوط الإتصال البريطانية لإجبارها على الإنسحاب من الصحراء الغربية. . . ووجدنا عوناً وتعاطفاً من ضباط آخرين ومدنيين لتقديم المتفجرات. . . لكن أحمد سعودي هرب وقتل، وإعتقل السادات وحسن عزت».

المرحلة الثانية ٤٥ ـ ١٩٤٨، يشير اليها معظم الضباط الأحرار كمرحلة الدعاية، وتلاها إقامة تنظيم سري في الجيش في صفوف الضباط، بينما صعد الإخوان ومصر الفتاة من نشاطهم المسلح، وتشكل الأعوام ٤٩ ـ ١٩٥٢، المرحلة الثالثة، التي تشكلت خلالها الهيئة التنفيذية للضباط الأحرار.

ينبغي رؤية حركة الضباط الأحرار في إطار نسيج تدهور العلاقات المصرية البريطانية منذ محادثات صدقي بيفن عام ١٩٤٦ حتى إلغاء حكومة الوفد للمعاهدة من جانب واحد في اكتوبر ١٩٥١. وكان الصراع السياسي في ذروته عام ١٩٥٠، والجدال لا ينقطع حول هزيمة الجيش في فلسطين، وجلاء القوات البريطانية عن منطقة القنال وتحول الحرب الباردة إلى قتال عنيف في كوريا، وظهور الكيان الإسرائيلي، وظهور الولايات المتحدة كقوة عظمى، وتزايد تورطها في شؤون الشرق الأوسط، بينما تزايد سعي الغرب لخلق نظام أمني دفاعي جديد في المنطقة.

لكن الوفد أصبح فاسداً، وصعد من حملته ضد الوجود البريطاني في مصر ليحول الأنظار عن سمعته الملوثة، بينما كان غالبية المصريين يسعون لإجلاء القوات البريطانية عن مصر، والمطالبة بالوحدة مع السودان، ومفاوضات الحكومة البريطانية مع وزير خارجية الوفد محمد صلاح الدين للوصول إلى إتفاق.

في تلك الفترة، لم تنقطع الحملات الصحفية على فضيحة الأسلحة الفاسدة، وتلمح للملك وحاشيته، وإستقطب هذا عداء كل الجماعات الراديكالية للوفد، وفوق ذلك إنصراف قاعدته الأصيلة عنه وهي الطبقة الوسطى. في أغسطس ١٩٥١ ترك الوفد الجماهير تتظاهر ضد المعاهدة المصرية البريطانية، وألغاها في أكتوبر ١٩٥١، ورفض أيضاً عروض الإنضمام إلى أحلاف للدفاع عن الشرق الأوسط.

وكتب «سير توماس راب» من وزارة الخارجية: «استمرت المفاوضات حول السودان

حتى تـوقفت بلا نتيجـة. . . كان النصف الأول من عـام ١٩٥١ في مصر يبـدو مثـل الهـدوء الذي يسبق العاصفة».

وسط إنسحـاب العـمال المصريـين من المعسكـرات الـبريـطانيـة في القـنـاة، وحـدوث عمليات تخريبيـة، أمرت وزارة الخـارجية، مكتب الشرق الأوسط بنقـل قسمه السيـاسي إلى فـايد (في السـويس)، بينما نقلت قسم التـطوير إلى بـيروت، وقـام الجيش المصري بـإعـداد تحصينات دفاعية في الطريق إلى القاهرة، لكنها لم تكن رادعاً حقيقياً لأي عمل يمكن أن يقوم به الجيش البريطاني، في نفس الوقت، تـدخل الفـريق عزيـز المصري لحل الخـلاف المصري البريطاني، يقول سير توماس راب، في أوراقه الخاصة:

«كان يجب أن ننصبه رئيسـاً للوزارة بدلاً من النحـاس باشـا، ونسوي المشكلة بعـدئذ حول مستقبل قواتنا بالإنتقال للضفة الأخرى للقنال، ويمكن بقوته أن يجعل هذا الحل مقبولاً للمشاعر الوطنية».

يمكن للمرء إفتراض قدرة عزيز المصري بالإعتماد على عـلاقته بـالجماعـات الراديكـالية والضباط المصريين لتأييده في الوصول للحكم، لكنها مع ذلك تبقى مجرد شطحة خيال.

بنهاية ١٩٥١، كانت مصر «بلداً تعيساً» ففي القـاهرة «يـوجد مـلامح دولـة بوليسيـة في كل مكان، وفقدان الثقة والشعور بالسخط» كما كتب «أوين تويـدي» في تقريـره الحاد، لكن هذا المناخ القلق المضـطرب، كان مـوجوداً منـذ إغتيال رئيس الـوزراء أحمد مـاهر في فـبراير ١٩٤٥ على يد أحد أعضاء مصر الفتاة السابقين محمد العيسوي عوض الله، ثم عضو الحزب الـوطني منذ عـام. وفي ينايـر ١٩٤٦، اغتيل أمـين عثـمان بـاشـا «العـين الـزرقـاء للسفـارة البريطانية» فلقد شجعت مصر الفتاة والجماعات الراديكالية الأخرى على قتل المتآمرين.

الأهم بالنسبة للضباط الأحرار، هـو الصدام بـين القوات الـبريطانيـة وقوات بـوليس الإسـماعيلية، أو قـوات بلوك النظام، في ينـاير ١٩٥٢، الـذي أدى إلى حرق القـاهـرة يـوم السبت الأسـود، الحادث الـذي أدى إلى إنفصال الجيش عن الحكـومة كليـة، وعن الوفـد، وعن الملك.

في خطابها إلى إبنها كتبت زوجة تـوماس رسـل باشـا، قائـد بوليس القـاهرة «المـوقف يعتمد الآن على لمن يكـون ولاء الجيش المصري، والذي يعتـبر معظمـه معاديـاً للملك» من ناحيته قام الملك بإنقلاب قصر، بإختياره علي ماهر رئيسـاً للوزارة، والذي كـان أعوانـه من مصر الفتاة قد شاركوا بفعالية في حرق القاهرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢.

كتب السادات أن عبد النـاصر في عام ٥١ ـ ١٩٥٢ طلب من الضـابط جمال القـاضي الإتصال بخاله عبد اللطيف محمود باشا الوزير الوفدي مستفسراً منه «عن نوع المساعدة التي يعتقد الوفد أن الجيش يمكنه تقديمها لمنع الملك من العدوان على الدستور» وأشار عبد الناصر أيضاً على الضابط رشاد مهنا للإتصال بقريبه فؤاد سراج الدين باشا سكرتير عام الوفـد حول نفس الإقتراح، لكنه رفض، فإختار ضابطاً آخر وهو أحمد أنور الذي أصبح فيـما بعد قـائداً للبوليس الحربي، ليقوم بالإتصال.

لو كانت معلومات السادات دقيقة فإنها تفترض عدم تفكير عبد النـاصر في الثورة حتى نهاية ١٩٥١ وبداية ١٩٥٢، لكن قد يكون هذا مجرد تكتيك من جانب عبد الناصر.

كانت سياسة الولايات المتحدة عاملاً معقداً في الأزمة إبان أعوام ٤٩ ـ ١٩٥٢، فلقـد أظهر السفير الأمريكي في القاهرة جيفري كامزي، وهو أمريكي من أصل أيرلندي، مشاعـر عداء لبريطانيا، وتشجيعاً للمصريين في نضالهم ضد إنجلترا، وإعتبر المراقبون البريـطانيون أن السياسة الأمريكية ليست معادية لبريطانيا فقط، بل متناقضة؛ فالأمريكيـون يسعون لتـوسيع نفـوذهم في الشرق الأوسط، في نفس الوقت، وعـلى سبيل المثـال قـام عـلي صـبري (رئيس الوزراء في عهد عبـد الناصر) الضـابط بالمخـابرات العسكـرية المصريـة، بالإتصـال بالملحق العسكري الأمريكي في القاهرة، ونجح في كسب حياد أمريكا، إن لم يكن تأييدها.

هناك أجواء أنذرت بهبوب عـاصفة ثـورة يوليـو، تمثلت في المشاكـل المتفجرة في ريف مصر، حيث إندلعت الإنتفاضات الفلاحية ضد الإقطاعيين مثـل البدراوي عـاشور، صهـر سراج الـدين، وفي دوائر الأمـير محمد عـلي، والأمير يـوسف كمال، وتـأكدت تحـولات البناء الإجتماعي المصري.

في عـام ١٩٧٠ كتب «جان لاكتـوير» مـلاحظاً بشكـل عام أن الشبـاب الطمـوح من الضباط الشبان كانوا يشتركون في رغبة واحدة لتحويل وجه الحياة في مصر، لكنهم لم يعـرفوا شكل النظام الجديد الذي يريدونه، وفي كتابه «هرم الإغتراب» وصف مشاعرهـم:

«الإغتراب عن الإحتلال الأجنبي، والرغبة في تحرير مصر منه، الإغتراب عن النـظام الإقتصادي، والرغبة في تغييره وإقامة «العدل الإجتماعي»، الإغتراب عن الطبقـة الحاكمـة، وبالتالي إزاحتها في الفترة من ٥٢ ـ ١٩٥٤».

مع ذلك بقيت الدوافع مختلطة، تقاليد الوطنية الرومانسية العارمة، منذ ثورة ١٩١٩، مختلطة بالروح المحافظة الزراعية، وفكـرة غامضـة عن العدل والإصـلاح الإجتماعي، ولقـد

طبعت السنوات الثلاثون من الخبرة وأولوية القضية الوطنية، على باقي المشاكل، ولقد تركت مصر الفتاة والإخوان المسلمون واليسار بصماتهم على هؤلاء الشباب.

في التحليل النهائي، لقد حافظ تنظيم الضباط الأحرار على بقائه وقدرته التنظيمية وأهدافه الأساسية وسط كل تلك الجماعات والأنشطة بفضل قدرة عبد الناصر، فلقد تمكن بفضل دعايته المنظمة وجهاز مخابراته الكفؤ من الإستفادة من وضع السلطة المتدهور منذ ١٩٤٦، وتمكن من الإطاحة بالنظام القائم بسهولة بالغة، ولقد إنبهر به جميع المصريين أعلاهم وأدناهم، وأكد هذا رؤيته لروح مصر السياسية وإستمراريتها التاريخية، مصر لا تستطيع القيام بأي شيء بدون وجود ملك أو قائد.

الفصل السابع

نجاح ثورة يوليو

إزاحة خصوم الثورة

لقد إهتم كثيرون برواية أحداث ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ حتى أصبحت شائعة، لذا سأركز هنا على جذورها ومقدماتها، وبالمثل الظروف السياسية المصاحبة لنجاحها، بالإضافة إلى إلمامة بدور عبد الناصر الشخصي. فلقد أعقب نجاح الثورة ترسيخ وتوطيد دعائمها، لذلك سينصب إهتمامنا على دور عبد الناصر وشخصيته، وسنفترض أولاً: أن عبد الناصر منذ البداية إستهدف إستئثار الضباط الأحرار بالسيطرة على الثورة، وثانياً: سعى عبد الناصر لتأمين سيطرته على النظام الثوري الجديد في مصر، كخطوة تجاه سيطرته على الدولة.

في تعليقه على سعي الضباط الأحرار لإنتزاع السلطة، كتب السير «أنتوني ناتنج» عام ٧١ - ١٩٧٢:

«في ذلك الوقت لم يكن لدى عبد الناصر ورفاقه الضباط الأحرار أية نية بأن يحكموا مصر، فهم يفتقرون للخبرة والكفاءة لأداء تلك المهمة، وكما إعترف عبد الناصر صراحة لم يكن لديهم برنامج سياسي سوى بيان النقاط الست بأهدافها وإطارها العام، والتي إنطلقت منه السياسة الثورية في أداء يومي على أساس برجماتي حقاً، فلقد إبتعدوا طيلة إعدادهم للثورة عن أي جمعيات سياسية؛ صحيح، أن كثيرين منهم بمن فيهم عبد الناصر نفسه كانت له روابط شخصية بالإخوان المسلمين، وفي فترة أخرى إرتبط بالحركة الشيوعية».

ليس واضحاً ما إذا كان سير أنتوني ناتنج قد توصل لهذه النتيجة على أساس ملاحظاته وتقييمه الشخصي أم نقلها عن عبد الناصر والمحيطين به. ورغم أنها نتيجة معقولة تماماً ومقنعة لأي مراقب، لكن الأصح كما أوضحت، فإن عبد الناصر أولاً قد إستهدف أن يقود الضباط الأحرار للقيام بثورة، ثم ثانياً، كان هو وعدد من الضباط الأحرار أعضاء في بعض الجماعات الراديكالية لفترة معينة.

في الحقيقة لقد ظهرت بعض سياسات عبد الناصر الثورية كرد فعل أو إستجابة لتفاعل الظروف والأحداث الداخلية والخارجية، لكن البيانات السياسية الأولية ومختلف الإجراءات الإصلاحية لم تظهر فجأة من تحت القبعات العسكرية، فلقد ترددت من قبل كثيراً في أوساط الجماعات الراديكالية التي كان ينتمي إليها عدد من الضباط الأحرار، ربما

يكون الافتقار للخبرة أو الكفاءة سبباً لفشل إستعمال السلطة أو الحفاظ عليها، لكنه لا يحول دون إستحواذ ضباط الجيش عليها.

إبان الفترة من ١٩٥٢ حتى ١٩٥٤ تم توطيد وترسيخ سلطة ثورة يوليو على مرحلتين، الأولى، تحققت بسيطرة الثورة على مجمل القوات المسلحة، والثانية، إستلزمت إضعاف وتحييد ثم تصفية باقي مواقع السلطة السياسية القائمة: العرش الملكي، الأحزاب السياسية، كبار المسؤولين، كبار ملاك الأراضي، رجال المال، التجارة، الصناعة، وكل أعضاء الطبقة الحاكمة. إرتبط بهاتين الخطوتين، تحقيق السيطرة على التعليم، الإعلام، النقابات المهنية، إتحادات العمال، المجالس القروية في الريف، المؤسسات الدينية، الإدارة البيروقراطية لجهاز الدولة وإجمالاً المجتمع ككل.

لقد إستخلص سير أنتوني ناتنج ملاحظته جزئياً على أساس قول عبد الناصر إن الهيئة التأسيسية للضباط الأحرار ناقشت بعد ٢٦ يناير ١٩٥٢ القيام بإنقلاب لإعادة النحاس باشا إلى الحكم، لكن لقد سبق للضباط الأحرار التورط في محاولة تفجير منزل النحاس باشا، وتفجير سيارة اللواء حسين سري عامر، وتفترض مناقشة المواد التاريخية المصرية والمقابلات مع المقربين من عبد الناصر أن الضباط الأحرار قد أرضاهم تعيين علي ماهر رئيساً للوزارة بعد حريق القاهرة، وتقبلوا تعيينه رئيساً لأول وزارة مدنية بعد الثورة، ليس ببساطة بسبب عدائه لبريطانيا إبان الثلاثينات والأربعينات، بل أساساً لكونه «رجلاً قوياً» وسياسياً أتاتوركي النزعة وبسبب تأييده المستمر للتنظيمات الراديكالية التي إنبهر وتأثر بها الضباط الأحرار في مرحلة الشباب.

حتى أغسطس ١٩٥٢، كان الضباط الأحرار يعلنون إستعدادهم للتعاون مع الأحزاب السياسية، وأكدوا طبيعة حركتهم كثورة شعبية بالتركيز على إرتباطاتها بسلسلة الإنتفاضات القومية منذ ١٧٩٨، ووصفت ثورة يوليو بإعتبارها ذروة النضال القومي الذي بدأ مع نضال عمر مكرم ضد الفرنسيين؛ يقول عبد الناصر في «فلسفة الثورة»:

«كانت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ إستجابة لطموحات الشعب المصري في العصر الحديث وحكمه لنفسه... منذ يوم أن قاد عمر مكرم الحركة الشعبية لتنصيب محمد علي والياً على مصر... ويوم أن طالب عرابي بالدستور... وعندما إندلعت ثورة ١٩١٩ وطالب سعد زغلول بالإستقلال عن بريطانيا».

تبقى حقيقة أن الضباط الأحرار قد إستحوذوا على السلطة بالقوة، كان زعيمهم المعلن لواء غير معروف جماهيرياً نسبياً، بينما كل أعضاء مجلس قيادة الثورة من الضباط الشبان

لتأكيد وصول جيل جديد للسلطة؛ لكن لم يكن أحد واثقاً لأي غرض سوى حقهم في قيادة ثورة ضد النظام القديم، لذا كان الجميع مستعداً للتساؤل وربما للتحدي، والصراع على السلطة.

لقد إتهم اليسار المصري الضباط الأحرار بوجه عام وعبد الناصر على وجه الخصوص، بأنهم صناع ثورة مضادة، إستولوا على الثورة الحقيقية.

الصراع على السلطة

فوجىء الضباط الأحرار بالسهولة التي تحقق بها إنقلابهم، فلقد كان يفوق توقعاتهم، ففي الساعة الرابعة من صباح يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وجدوا أنفسهم يسيطرون على الجيش، وكان رد فعل الجماهير على البيان الأول للثورة ـ والذي أذيع في السابعة والنصف صباحاً ـ مرحباً، وخرجت المظاهرات في بعض الأحياء.

ظلت حركة الجيش ومصيرها معلقاً بيد القدر، حيث لم يكن الضباط الأحرار واثقين من الخطوة التالية تماماً، حول ما يجب فعله مع الملك فاروق وحكومته المتعثرة في الاسكندرية، والوفد والإخوان وأنصارهما الطلقاء، ولم يكن السياسيون من جانبهم يعرفون هوية هؤلاء الضباط على وجه الدقة، وما هي أهدافهم، وكان الأمر وكأنه ضرب من التنجيم.

أدرك الضباط الأحرار ضرورة تحدي الملك أولاً، وبإعتباره أعلى رمز للسلطة والحكم، فستؤدي إزاحته إلى شل قدرة كل مؤيديه. ولكن ظهرت مشكلة أخرى، حيث لم يكن هناك إتفاق بين الضباط على ما يجب عمله بشأن الملك، فلقد ضغط زكريا محيي الدين وجمال سالم لإعدام الملك، بينما وافق الغالبية على خلعه ونفيه للخارج، لأنهم غير مستعدين لإلغاء الحكم الملكي كلية، وكان هناك إتفاق عام على تطهير القصر من الحاشية الفاسدة وموظفي البلاط الملكي، وكان كل ما يريدون تثبيته هو أنهم تجسيد لإرادة الشعب، بغرض غرس بذور الإطاحة الحتمية بالنظام الملكي، وهو ما حدث بعد عام. وبمفهوم عملي، إستقطاب أعداد هائلة من ضباط الجيش موالين لمجلس قيادة الثورة وتعيينهم في وظائف هامة، مما أتاح السيطرة على مواقع السلطة، وجسدت هذه العملية آلية متعددة التأثير لخلق طبقة حاكمة جديدة، ونخبة حاكمة جديدة.

لقي الضباط الأحرار(*) في الأيام الأولى لحركتهم ترحيباً من كبار رجال القانون

(*) رغم محاولة المؤلف الدؤوبة إظهار حرصه على الموضوعية، إلا أن بعض التوصيفات والعبارات العدائية لثورة =

والقضاة مثل سليمان حافظ والمستشار عبد الرزاق السنهوري رئيس مجلس الدولة. وكانوا معارضين لحزب الوفد ويتمنون تحطيمه، ولذا كانوا متلهفين على تقديم المشورة والخبرة التي يحتاجها الضباط الأحرار لإصدار قراراتهم الأولى، وخلع الملك ونفيه.

بالمثل قدموا مشورتهم الدستورية والقانونية في قضية مجلس الوصاية على الملك الطفل أحمد فؤاد الثاني، وقرارات إلغاء الألقاب، وتخفيض إمتيازات الوزراء وكبار المسؤولين، مثل إستخدام السيارات الحكومية... الخ.

استدعى الضباط الأحرار علي ماهر لتشكيل حكومة، وكان مفيداً لخلق الإنطباع بأنهم يجهزون لإقامة نظام دستوري صحي، لكنه ظل عاجزاً عن الحكم، فوق ذلك، كان علي ماهر معروفاً بنزعاته الأوتوقراطية (الإستبدادية) ودخل في نزاعات أضعفت القوى المدنية، وعجلت بصدامه مع الضباط الأحرار، وفي نفس الوقت وسعت عضوية مجلس قيادة الثورة يوم ١٥ أغسطس ١٩٥٢، ليصبح ١٥ بدلاً من ٩، وكان ذلك يعني توسيع تمثيل كافة أفرع القوات المسلحة وتكثيف قوة الجيش، بالإضافة إلى قرار مجلس قيادة الثورة بتعيين عدد كبير من الضباط الموثوق بهم، كمندوبين في الوزارات ومؤسسات الدولة. وكان الضابط يعمل «مندوباً للقيادة» بجوار الوزير أو المسؤول المدني، وخلق هذا الإجراء «إزدواجية» في الحكم، وأصبح سهلاً فرض سلطة الضباط الأحرار والتخلص من الجهاز الإداري المدني.

كتب فتحي رضوان عن تلك الفترة:

«كان عبد الناصر يعرف بفطنته أن الثورة يجب أن تمر بمرحلة إنتقالية وسيُرتكب أثناءها الكثير من الأخطاء وتجري عمليات تطهير، ولم يرد أن يتحمل رفاقه وحدهم صدمات المرحلة الأولى، لذا قرر ضرورة إكتسابهم الخبرة بتولي المناصب الأقل أهمية ومواقع «وكيل عام الوزارة» في كل المؤسسات والوزارات المدنية، حتى يتعلموا أسرار الحكم والإدارة التي تختلف جذرياً عن الإدارة العسكرية، لهذا لم يرغب عبد الناصر في توليهم كامل سلطاتهم إلا بعد إكتساب التدريب الكافي».

أدى هذا الترتيب إلى ظهور وظيفة «مندوب القيادة» في كل الإدارات الحكومية ووقوع صدامات حتمية بين الوزراء المدنيين والمندوبين العسكريين.

= يوليو تفرض نفسها أحياناً تعبيراً عن موقفه المعروف من عبد الناصر وثورته، هنا إستخدم كلمة «العسكر» بدلاً من الإسم الشائع والمعروف والذي سبق له إستخدامه، لذا فضلنا إستخدامه دون الإلتفات لهذا الخروج على قيم البحث العلمي (المترجم).

رفض علي ماهر وجود وظيفة «مندوب القيادة» وما تفرضه من أعباء على ميزانية الدولة، وعارض قانون الإصلاح الزراعي كما صاغه سليمان حافظ والماركسيان راشد البراوي وأحمد فؤاد، وإعتبر أن الحد الأقصى للملكية يجب أن يكون خمسمائة فدان وليس مائتي فدان. وبوجه عام، إعتبر علي ماهر إرتباك الأحزاب السياسية، والوفد بوجه خاص، وإفتقار الضباط للخبرة، إعتبره مركباً نموذجياً للفراغ السياسي الذي يمكنه ملؤه، لكن إعتقال الجيش لعشرات السياسيين في بداية سبتمبر دون التشاور معه أو إبلاغ حكومته، أكد عجزه وعدم أهميته، وإستقال علي ماهر بعد مرور ٤٦ يوماً فقط على تشكيل حكومته، وترأس محمد نجيب حكومة غالبية أعضائها مدنيون في ٧ سبتمبر، وكان أول عسكري منذ أحمد عرابي يصبح رئيساً لوزراء مصر، وبعد يومين أصدر قانون الإصلاح الزراعي.

بهذا الخصوص، يمكن للمرء إعتبار علي ماهر أداة فعالة مرحلياً في ترسيخ سلطة الضباط بعد الثورة مباشرة، من خلاله إستطاع الضباط الأحرار إظهار النية المبهمة لإعادة حكومة مدنية برلمانية، وفي نفس الوقت، أسهم عداء علي ماهر للأحزاب السياسية في إضعافها وتحييد دورها. ومع ذلك لم يستطع علي ماهر والضباط الأحرار التعاون جدياً، فلقد كان رغم ماضيه السياسي المستقل، رجلاً من الحياة السياسية القديمة، وينتمي للبرجوازية وملاك الأراضي الأثرياء، لذا كان طبيعياً أن يقترح علي ماهر كبديل لقانون الإصلاح الزراعي إصلاحاً تدريجياً إجتماعياً وإقتصادياً.

لقد نجح الضباط الأحرار في تطبيق هذه الإجراءات الإصلاحية، وتوطدت قوتهم، وضاعف التطهير ومحاربة الفساد من شعبيتهم، وأحدث صداماً بين الكادحين والمستغِلين، وتصاعدت شعبية محمد نجيب، فلقد رحب الفلاحون الذي يشكلون ٦٥ بالمائة من المجتمع، بقوانين الإصلاح الزراعي، ترحيباً حماسياً، مما أعطى دافعاً قوياً لإدارة التغيير الإجتماعي للضباط الأحرار، وهكذا شنوا حملة ضارية ضد نخبة كبار ملاك الأراضي، والقاعدة الإقتصادية لسلطتهم، وكانت الجماهير الشعبية مؤيدة لهم.

تزايدت قوة الضباط الأحرار وأصبح حتمياً وقوع صدام مع كل الأحزاب السياسية ببدء حملة التطهير، وكان هذا متوقعاً طالما أن حركة الضباط لا تعتمد على أي حزب منها. ومع ذلك ظل مجلس قيادة الثورة طيلة فترة ستة شهور بعد يوليو ١٩٥٢ يعطي الإنطباع بأنه يعمل لإعادة حكومة دستورية. في نفس الوقت، عقدوا المحاكمات الثورية للفساد، مما يعكس أن عودة الحكم الدستوري تتطلب أولاً تطهير البلاد من الفساد السياسي.

لقد حدد مجلس قيادة الثورة وسائل تطهير الحياة السياسية، ووفقاً لقانون تنظيم الأحزاب الصادر في ٩ سبتمبر ١٩٥٢، خضعت الأحزاب لرقابة الجيش من خلال وزارة

الداخلية، وتم إعتقال عدد كبير من القيادات الحزبية، وتم حل الأحزاب، وأصبح إعادة بنائها خاضعاً لموافقة الجيش. وعلى سبيل المثال، إستقال النحاس باشا من زعامة حزب الوفد، ويقال إنه أخبر رفيقه إبراهيم فرج مسيحه، وزير خارجية الوفد في أحد وزاراته «الجيش يسير كالبلدوزر ولن يوقفه إلا تمسك الجمهور بالمبادىء الديمقراطية والدستور».

كان دور حملة التطهير أوسع مدى من دائرة الفساد السياسي الحزبي، وشمل فصل مسؤولي وكبار موظفي الدولة، لأسباب سياسية، ومحاكمة كبار الشخصيات بسبب جرائم ضد الفلاحين ووفقاً لقوانين الإصلاح الزراعي.

مجرد إلغاء الدستور في ديسمبر ١٩٥٢، أدى إلى تأجيل الإنتخابات إلى ما بعد توقيع إتفاقية جلاء القوات البريطانية، وعارضت الصحف الوفدية إتجاه الضباط المعادي للدستور، وتظاهر الطلاب، بينما تشكلت لجنة من خمسين عضواً برئاسة علي ماهر لصياغة مشروع دستور جديد في يناير ١٩٥٣، وأعلن دستور المرحلة الإنتقالية لمدة ثلاث سنوات ويشمل إحدى عشرة مادة، وصاحب هذا إعتقال أعضاء الأحزاب المرتبطين بقوى أجنبية.

أعلن عن تشكيل هيئة التحرير في ٢٣ يناير ١٩٥٣، تحت إشراف بعض الضباط، كتنظيم سياسي جديد خالٍ من فساد الأحزاب القديمة، وأكد الدستور الإنتقالي ١٠ فبراير ١٩٥٣، على مبادىء الثورة الستة، وإجراء المزيد من الخطوات لتصفية النظام القديم، وفي شهور قليلة تم تفتيت الأحزاب وأصبح قادتها عاجزين.

في تلك الفترة كان عبد الناصر وزيراً للداخلية وسكرتيراً عاماً لهيئة التحرير، وفي إحدى خطبه الجماهيرية شرح وضع الثورة وموقفها من الجماعات السياسية:

«لسنا معارضين لتلك الأحزاب، لكننا معارضون فقط لزعمائها الفاسدين، ولذا فإن هيئة التحرير ليست حزباً، بل أداة لإعادة تنظيم القوى الشعبية» وكجزء من عملية إعادة التنظيم ألغى الضباط الأحرار الملكية وأعلنوا الجمهورية في يونيه ١٩٥٣.

تحلل الحلفاء

عندما إستلم الضباط الأحرار السلطة، أفرجوا عن المعتقلين السياسيين في ظل النظام البائد وفقاً لعفو عام بين يوليو واكتوبر ١٩٥٢. لكنهم ما لبثوا أن بدأوا حملات إعتقال في سبتمبر ١٩٥٢، وفي بداية عام ١٩٥٣، وبرحيل الملك وإزاحة الأحزاب السياسية، والسيطرة التدريجية لهيئة التحرير على الصحافة والجماهير، أصبحت معارضة مجلس قيادة

الثورة تقتصر فقط على بعض ضباط الجيش، وبعض الجماعات الشيوعية والإخوان المسلمين.

كان تعامل الثورة مع الإخوان المسلمين مهمة صعبة، فلقد بدا وكأن علاقتهم القديمة والوثيقة ستستمر بعد الثورة، مع ذلك فلقد وقع صدام مبكر حول إنضمام وزراء من الإخوان المسلمين لأول وزارة مدنية، ومجلس الوصاية، والإفراج عن مسجوني الإخوان المتهمين بإغتيالات سياسية، وإصرار الإخوان على ضرورة إتباع الضباط الأحرار لسياستهم العامة، وتزايدت حدة التوتر إثر تقرب الإخوان للواء محمد نجيب ومحاولاتهم إثارة وإختراق الجيش والبوليس، خصوصاً بعد إخراج عبد المنعم عبد الرؤوف ورشاد مهنا من الضباط الأحرار.

ظل تعايش وتعاون الإخوان ومجلس قيادة الثورة مستمراً طيلة عامين، فلقد وجد الضباط في الإخوان حليفاً مقنعاً في نضالهم ضد الملكية والأحزاب القديمة والشيوعية، ومن جانبهم، وجد الإخوان الفرصة للسيطرة على حركة الجيش من خلال أعضائهم والمتعاطفين معهم، وبنهاية عام ١٩٥٣، كان الإخوان يجسدون التنظيم السياسي الوحيد في الساحة السياسية، ويقودون جماهير غفيرة، ويطرحون البديل الوحيد لحكم الجيش.

وقع الإنفجار بعد مظاهرات طلاب الجامعة في يناير ١٩٥٤ إبان الإحتفال بذكرى «شهداء القنال» وأدت الصدامات مع البوليس إلى وقوع ضحايا وإستخدام أعضاء الإخوان السلاح. وأصدر مجلس قيادة الثورة قراراً بحل جماعة الإخوان لمعارضتهم قوانين الإصلاح الزراعي، وإختراقهم الجيش والبوليس وإقامتهم تنظيماً سرياً شبه عسكري، وإقامة علاقات مع بريطانيا، واعتقل المرشد العام ومجلس الإرشاد العام وما يقرب من خمسمائة عضو.

الفصل الثامن

إنتصار عبد الناصر

التطهير

كان إعلان الجمهورية نقطة تحول في ١٨ يونيو ١٩٥٣، وإشارة إلى رغبة الضباط الأحرار في إكتساب سلطة دائمة، وتحويل مجلس قيادة الثورة من قيادة ثورية إلى حكومة، وبهذا الإعلان بدأت حقبة الصراع على السلطة بين عبد الناصر ومحمد نجيب، الذي أصبح رئيساً للجمهورية بالإضافة إلى كونه رئيساً لمجلس الوزراء ومجلس قيادة الثورة، وتحت إصرار عبد الناصر، ورغم معارضة نجيب تمت ترقية عبد الحكيم عامر وتعيينه قائداً للجيش، وهو الصديق الصدوق لعبد الناصر، وأصبحت مهمته الأساسية الآن هي فرض سيطرة المجلس على الجيش، والحيلولة دون إثارة المنشقين لأية متاعب.

من خلال مهمة عبد الحكيم عامر أصبح بإمكان عبد الناصر التركيز على دعم وتقوية دور مجلس قيادة الثورة والحكومة الجديدة، ومن خلال موقعه كنائب رئيس وزراء ووزير داخلية يسيطر على قوى الأمن الداخلي، وموقع صلاح سالم المعادي لنجيب في وزارة الإرشاد القومي، بينما تولى عبد اللطيف البغدادي وزارة الحربية في اكتوبر ١٩٥٣، وتولى جمال سالم وزارة المواصلات، وزكريا محيى الدين وزارة الداخلية، وكل هذه الخطوات كانت تجسيداً لبداية تأسيس سلطة عبد الناصر داخل المجلس وفي أوساط الجيش.

في فبراير ١٩٥٤، وفي أعقاب مظاهرات الطلاب (الإخوان المسلمين) أثناء الإحتفال بشهداء القنال، تعرضت حركة الضباط الأحرار إلى إنقسام داخلي، كان أخطره الصدام بين نجيب وأعضاء المجلس الموالين لعبد الناصر، حيث أظهر نجيب إستياءه من سياسة عبد الحكيم عامر في نقل وفصل وتعيين الضباط في وظائف مدنية، وعارض أحكام إعدام زعماء الأحزاب السياسية(*) وتقييد إقامة مصطفى النحاس باشا، وكان قبل ذلك بشهور قليلة

(*) لم تقم ثورة يوليو بإعدام قيادات الأحزاب السياسية، فيما عدا تلك الأحكام التي طالت بعض قيادات جماعة الإخوان المسلمين: الهضيبي، وعبد القادر عودة والشيخ محمد فرغلي بعد قرار قيادات الاخوان اغتيال عبد الناصر وإثر محاولة الاغتيال التي جرح فيها عبد الناصر في ميدان المنشية والتي قام بها أحد عناصر الجهاز الخاص (المترجم).

قد عارض إعتقال وتعذيب ضباط المدفعية المتهمين في قضية التآمر ضد الثورة، وإستنكر إساءة معاملته من جانب بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة مثل جمال سالم وزكريا محيى الدين، وتسخير وسائل الإعلام للحملة عليه.

في ٢٣ فبراير شعر محمد نجيب بعجزه عن الإستمرار رئيساً لمجلس قيادة الثورة والجمهورية معاً، وسلم إستقالته إلى كمال الدين حسين سكرتير المجلس، وتولى عبد الناصر رئاسة الوزراء، وإتهم نجيب بالسعي للحصول على سلطات مطلقة، وفي اليوم التالي، قُطع الإتصال الهاتفي عن نجيب، وجُرِّد حارسه الشخصي من سلاحه، ووضع تحت حراسة قوة بقيادة عبد المحسن أبو النور، وأصبح منزله قيد الحراسة، وأعلن مكتب رئاسة الجمهورية إعتزام نجيب العودة للحكم الدستوري.

تفجرت المشاكل في أوساط الجيش عندما تمرد بعض ضباط سلاح الفرسان الموالين لخالد محيى الدين[1]، العضو الوحيد في مجلس قيادة الثورة المؤيد لمحمد نجيب[*]، وإستقال ثروت عكاشه الضابط بسلاح الفرسان من رئاسة تحرير مجلة التحرير بعد خلافه مع صلاح سالم وزير الإعلام، وعين بدلاً منه أنور السادات، وإنتقل عكاشه للعمل ملحقاً عسكرياً في باريس.

عقد ضباط سلاح الفرسان إجتماعاً ليلة ٢٣ فبراير، وإلتقى بهم عبد الناصر وقوبل بمعارضة عارمة لسياسة مجلس قيادة الثورة، وخرج من الإجتماع ليعرض على رفاقه في المجلس تشكيل حكومة جديدة برئاسة خالد محيى الدين لإعادة الحكم الدستوري للبلاد، ونقل لهم وقائع الإجتماع العاصف مع ضباط سلاح الفرسان، وعدم رضاهم عن سلوك أعضاء المجلس، ومن جانبه طرح عبد الناصر الإستقالة وترك دفة الحكم لمحمد نجيب وخالد محيى الدين، وربما كان هذا تصرفاً ذكياً من عبد الناصر، فلقد بدا وكأنه يقترح أن البلاد تريد محمد نجيب، وليس بإمكان حفنة من الضباط أعضاء مجلس قيادة الثورة مواجهة هذا الرأي العام، وأعيد محمد نجيب إلى سدة القيادة يوم ٢٨ فبراير.

---

(١) «كان خالد محيى الدين يكّن بإستمرار حقداً شديداً على عبد الناصر، وقد بذل هنري كورييل جهده لإقناعه بضرورة قلب الصفحة».
هنري كورييل رجل من نسيج خاص، جيل بيرو، ترجمة أسعد داغر ص ٢٦٣.

(*) رغم ذلك كان خالد محيى الدين بعد رحيل عبد الناصر أحد رفاقه القلائل الذين تحملوا عبء الدفاع عنه وعن منجزاته، لكن ربما يرجع الرأي السابق لطبيعة الخلاف بينهما إبان أزمة مارس ١٩٥٤، والتي بدا واضحاً مدى تمزق خالد محيى الدين بين الولاء للثورة ولعبد الناصر والولاء لإرتباطه بالحلقات الماركسية الهامشية وإغترابها عن الواقع وتعلقها بالمناورة للقفز للمشاركة في السلطة (المترجم).

كان التراجع تحت ضغط المطلب الشعبي بالعودة إلى الحكم الدستوري تحت قيادة تحالف بين محمد نجيب واليسار فوق طاقة إحتمال العديد من أعضاء مجلس قيادة الثورة، والمحافظون منهم مثل كمال الدين حسين، عبد اللطيف البغدادي والأخوين جمال وصلاح سالم، حذروا خالد محيي الدين ألا يتحول بالبلاد إلى الشيوعية ويسلمها إلى الشيوعيين.

في الساعات المبكرة لصباح يوم ٢٥ فبراير إصطحب عبد الناصر خالد محيي الدين إلى ميس ضباط سلاح الفرسان لإبلاغهم بقرار حل مجلس قيادة الثورة، وإعادة تنصيب محمد نجيب رئيساً للجمهورية، ورئاسة خالد محيي الدين لحكومة إنتقالية لثلاثة أشهر تجري إنتخابات جمعية تشريعية، بينما يعود ضباط مجلس قيادة الثورة إلى ثكناتهم العسكرية، ووسط عاصفة من التصفيق بدا أن خالد محيي الدين قد إنتصر ولو مؤقتاً.

بعد ذهابه لإبلاغ محمد نجيب بالقرار في منزله، عاد خالد محيي الدين إلى مقر القيادة ليجد أن صغار الضباط الموالين لعبد الناصر وباقي أعضاء مجلس قيادة الثورة قد رفضوا قرار المجلس، وهددوا بإستخدام القوة. وحاول بعضهم مهاجمة خالد شخصياً، لكن صلاح سالم وعبد الحكيم عامر منعاهم من القيام بذلك. كان ضمن هؤلاء المنشقين كمال الدين رفعت وحسن التهامي (وصار كلاهما فيما تلى ذلك من المقربين لعبد الناصر، وبالتالي إندرجوا في سلك الوزراء)، وأحمد أنور قائد البوليس الحربي ومجدي حسنين (مدير مديرية التحرير) وقائد الجناح وجيه أباظه المشهور بإنتمائه لمصر الفتاة. في الواقع، كانوا جميعاً أعضاء سابقين في مصر الفتاة، أو الحزب الوطني، أي ينتمون جميعاً إلى اليمين، وكان ضباط المدفعية أساساً هم الذين إحتشدوا وصوبوا فوهات بنادقهم حول مقر سلاح الفرسان، وإعتقلوا العديد من ضباط الفرسان، وذهب كمال الدين رفعت وإعتقل محمد نجيب في منزله، وإقتاده رهن الإعتقال في ميس المدفعية بألماظة. وكان صلاح نصر رئيس المخابرات المصرية في الستينات، حارساً شخصياً حينئذ لمحمد نجيب وسهل عملية إعتقاله. لكن تدخل عبد الحكيم عامر المباشر أنقذ نجيب وأطلق سراحه بعد ساعات.

تحاشى الضباط الأحرار الإنغماس في الخلاف، لكن ضباط الجيش في باقي المناطق عارضوا إستقالة محمد نجيب، كما في منطقة الإسكندرية. وإندلعت المظاهرات في القاهرة والخرطوم، ربما كمؤشر على مدى شعبية محمد نجيب. لكن الشعبية وسط جمهور الشارع لا قيمة لها في تحديد مصير ذلك الصراع على السلطة. وحينئذ وجد خالد محيي الدين نفسه في مواجهة المعادين للشيوعيين في مجلس قيادة الثورة، الذين يسيطرون على أعداد كبيرة من ضباط المدفعية والمشاة. وصار وضعه حرجاً. وحرص بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة على

إعتقاله، وإقترح آخرون نفيه للخارج. ومع ذلك ذكر عبد الناصر رفاقه أن المشكلة الحقيقية ليست خالد بل محمد نجيب، الذي لو خُلع سيلحق به خالد أيضاً.

صار الوضع خطيراً عندما حاولت محكمة عسكرية برئاسة جمال سالم إعتقال ضباط الفرسان. وتلقى القائد العام عبد الحكيم عامر تحذيراً بأنهم سيستخدمون الدبابات لإجتياح قصره لو لاحقت المحكمة سلاح الفرسان. وفي نفس الوقت، إستمرت المظاهرات في الشوارع، والمتظاهرون يرددون هتافات مثل «إلى السجن يا صلاح، إلى السجن يا جمال، لا ثورة بدون نجيب» ووقعت مصادمات مع البوليس. وعاد محمد نجيب إلى مكتبه يوم ٢٧ فبراير وسط إستمرار المظاهرات والمطالبة بتوضيح السلطات الرئاسية. وبقي عبد الناصر رئيساً للوزراء. في اليوم التالي، أدت المظاهرات الحاشدة في ميدان عابدين إلى وقوع خسائر كثيرة وإعتقال كثيرين. وفي غضون ثلاثة أيام من وقوع هذه الحادثة، أعتقل زعماء الإخوان المسلمين، والزعيم المؤسس لمصر الفتاة أحمد حسين، والوفديون والشيوعيون. وأغلقت الجامعات. وطالب محمد نجيب بالإفراج عن المعتقلين السياسيين.

وعقد مجلس قيادة الثورة إجتماعاً في غياب محمد نجيب الذي كان في زيارة لمدة ٢٤ ساعة إلى السودان، ولم يحضره خالد محيى الدين الذي ذهب، وفقاً لنصيحة إبن عمه زكريا محيى الدين، إلى وادي النطرون، وإعترف المجلس في إجتماعه بأهمية تجنب الصدام المباشر مع محمد نجيب حيث ظهرت شعبيته الجارفة. وبدلاً من ذلك، وافقوا على سياسة المصالحة التي أعلنوها في قرارات الخامس من مارس الشهيرة. ووعدوا بإجراء إنتخابات تشريعية في شهر يوليو، حيث يقر المجلس المنتخب الدستور الجديد، ويقوم بأعمال البرلمان، ورفع الرقابة عن الصحف وإلغاء الأحكام العسكرية وإطلاق حرية تكوين الأحزاب وفقاً للدستور الجديد، والوعد بإطلاق سراح كل السجناء السياسيين.

تردد صدى تأثير قرارات الخامس من مارس في الحملة الصحفية العارمة لصالح المطالبة بإعادة الحياة البرلمانية. في نفس الوقت، تخلى عبد الناصر عن كل سلطاته وسلمها لنجيب بوصفه رئيساً للجمهورية ورئيساً للوزراء. وأعلن في مؤتمر صحفي، عن فكرة تشكيل حزب إشتراكي جمهوري برئاسة محمد نجيب يدخل العسكر من خلاله الإنتخابات. ومن جانبه، إستخدم عبد الناصر سراً عبد الحكيم عامر في الجيش، وإبراهيم الطحاوي في هيئة التحرير لتقوية وضعه ضد نجيب وحلفائه من مختلف الجماعات، بما فيهم بقايا الأحزاب السياسية القديمة.

ظلت العلاقة بين محور محمد نجيب وخالد محيى الدين من جانب، وبقية أعضاء

مجلس قيادة الثورة على الجانب الآخر، متوترة ويشوبها الحذر. ربما إفترض محمد نجيب أن شعبيته في أوساط الرأي العام ستجتذب تأييد ودعم القوى السياسيةالقديمة له في الإنتخابات القادمة. بينما إعتمد عبد الناصر على إحكام قبضته على القوات المسلحة عن طريق عبد الحكيم عامر، وقوات الأمن التي تتنامى بسرعة خاطفة، وأجهزة الإعلام الموجهة والمحكومة بقبضة صارمة، ونقابات العمال ومنظمات الشباب تحت مظلة هيئة التحرير، وإشراف وزير الإرشاد القومي صلاح سالم ووزير الداخلية زكريا محيى الدين.

وأدت القلاقل الشعبية في الفترة من التاسع عشر من مارس إلى تردي الموقف. وصار بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة يطالبون بإجراءات صارمة للحفاظ على النظام العام. وفي الخامس والعشرين من مارس، إجتمع مجلس قيادة الثورة بكل أعضائه بمن فيهم محمد نجيب وخالد محيى الدين، وإقترح عبد اللطيف البغدادي قراراً حاسماً بالخيار ما بين التراجع عن قرارات الخامس من مارس، أو إلغاء كل القيود على النشاط السياسي. وتم إختيار البديل الثاني، فضلاً عن قرارين في غاية الأهمية: لن يعيد مجلس قيادة الثورة تشكيل نفسه كحزب سياسي، وبدلاً من ذلك سيحل نفسه يوم ٢٤ يوليو ١٩٥٤ عندما تنتخب الجمعية التشريعية الجديدة. وبالتالي سيعلن مجلس قيادة الثورة أن حركة الجيش قد إنتهت بحلول هذا التاريخ.

كان لهذه القرارات تأثير فوري ومدمر على هيئة الضباط. وإعتبروا تخلي مجلس قيادة الثورة عن سلطته ومسؤوليته قراراً طائشاً، وحركة تشير في رأيهم إلى حيلة وخديعة تساعد على عودة السياسيين القدامى واليسار إلى السلطة. وإجتذبت هذه الأحداث تعاطف الإخوان، الذين كانوا يعارضون أيضاً عودة «الحياة السياسية الحزبية».

في ٢٧ مارس تفجرت المظاهرات الحاشدة عبر أرجاء البلاد. وعمت شوارع العاصمة سيارات النقل واللواري المحملة، بالعمال من المصانع في ضواحي القاهرة، والفلاحين من ريف مصر وجماهير هيئة التحرير وشبابها، وهم يهتفون:

«لا أحزاب، لا برلمان، لا تتنازل يا جمال، لا حزبية، لا إنتخابات» وتحت بصر وممالأة قائد البوليس الحربي هاجمت الجماهير مجلس الدولة - أعلى سلطة قضائية في البلاد - حيث كان مجتمعاً لمناقشة الإجراءات القمعية لمجلس قيادة الثورة.

بعد إنقضاء أيام ثلاثة نزل الجيش إلى الشوارع للحفاظ على النظام. وأعلن صلاح سالم سلسلة من القرارات لتعطيل ووقف قرارات الخامس من مارس، والخامس والعشرين من الشهر نفسه. وبدلاً من ذلك، قرر مجلس قيادة الثورة البقاء في السلطة على الأقل لحين

الإنتهاء من إتفاقية الجلاء مع بريطانيا. وأبعد محمد نجيب عن الرئاسة ومجلس قيادة الثورة، وأبقي في منصب رئيس الجمهورية لتهدئة السخط الشعبي.

شنت أجهزة الإعلام التي يسيطر عليها الجيش حملة عنيفة ضد هؤلاء «المنتقدين الليبراليين» في صحيفة «المصري» الوفدية لصاحبيها الأخوين أبو الفتح، ومجلة روز اليوسف الأسبوعية، وتم إعتقال رئيس تحريرها. واتخذت إجراءات صارمة ضد الفساد، وتطهير الصحافة وفرض النظام والإنضباط في الجامعات. وصدر قانون لحماية الثورة، وقانون آخر لإختيار المسؤولين في الإدارات المحلية والبلدية. وتم حل النقابات المهنية والجمعيات، بما فيها مجلس نقابة الصحفيين لإتهام أعضائه بتلقي مصاريف سرية من مصادر أجنبية. وأعلن قرار صدر يوم ١٤ أبريل أنه لن يتولى أي شخص منصباً رسمياً إذا ما كان قد شغل أية مناصب ما بين فبراير ١٩٤٦ ويوليو ١٩٥٢. وهذا يعني عملياً كل أفراد الحياة السياسية القديمة. وأصبح عبد الناصر يوم ١٧ ابريل ١٩٥٤ رئيساً للوزراء، وأدخل وزارته ثمانية من أعضاء مجلس قيادة الثورة. وإختفى خالد محيى الدين في الاسكندرية وقدم إستقالته. وعرض عليه عبد الناصر الخيار الوحيد المتاح له، وهو مغادرة البلاد كمندوب للمجلس القومي للإنتاج حديث النشأة.

أدى كشف محاولة إنقلابية في صفوف ضباط سلاح المدرعات إلى حملة إعتقالات واسعة، وعملية تطهير، ومحاكمة الضباط المتآمرين وإدانة العديد منهم في شهر يونيه. في نفس الوقت، إعتقل الضابط الإخواني عبد المنعم عبد الرؤوف مع خمسة أو ستة آخرين. وفي نهاية مايو تم إعتقال أكثر من ٢٥٠ شيوعي، وصدرت بحقهم أحكام بالسجن في شهر يوليو. وتم تطهير الجيش من قائد الحرس الحديدي التابع للقصر الملكي مصطفى كمال صدقي وأعضاء جبهته الديمقراطية. وتلى بدء مفاوضات الجلاء البريطانية - المصرية في ٢٧ يوليو حملة إعتقالات واسعة في صفوف ضباط الإخوان المسلمين، طالما أن الإخوان يعارضون الإتفاقية. وقاد ذلك إلى وقوع صدامات خطيرة بين ميليشيات الإخوان السرية (التنظيم الخاص) وقوات الأمن. ودعا الزعيم الطلابي الإخواني حسن دوح إلى المقاومة الشعبية لحركة الجيش من فوق منابر المساجد وأثناء صلاة الجمعة.

جاءت نهاية حركة الإخوان المسلمين في الإسكندرية يوم ٢٦ أكتوبر، بعد توقيع معاهدة الجلاء المصرية البريطانية بسبعة أيام. وكان عبد الناصر يخطب في جمهور تعداده عشرة آلاف عامل من مديرية التحرير، عندما أطلق عليه الرصاص محمود عبد اللطيف، وهو عامل من إمبابة، أحد أحياء القاهرة وعضو التنظيم السري الخاص للإخوان. وصاح جمال عبد الناصر: «يا رجال، ليبق كل في مكانه... حياتي فداء لكم، دمي فداء مصر.

أتحدث لكم بعون الله بعد أن حاول أحد الخبثاء قتلي. حياة جمال عبد الناصر ملك لكم، لقد عشت من أجلكم، وسأظل كذلك حتى الموت، أناضل من أجلكم».

لم تمكّن الرصاصات التسع التي أطلقها محمود عبد اللطيف عبد الناصر فقط من قمع وسحق الإخوان معارضيه الأشداء، بل حولت مشاعر الجماهير التي إلتفت حول عبد الناصر؛ ومن الآن فصاعداً صار يستقبل بحماس متقد كلما ظهر بينهم، وكأن الجماهير قد أسرها حبه. وبعد عامين أفرخت أزمة السويس الناصرية.

في نفس الليلة ٢٦ أكتوبر كان هناك إعتقالات لكثير من الإخوان المسلمين وزعم أنه طلب منهم في المعتقلات ملء بطاقات ببيانات أسمائهم وعناوينهم. وفي نوفمبر شكلت محكمة الشعب برئاسة جمال سالم، وأنور السادات، وحسين الشافعي وقضت بسجن أكثر من ٨٠٠ معتقلاً. وحاكمت المحاكم العسكرية ٢٥٠ آخرين. وتم إعدام ستة من الإخوان، منهم أعضاء مكتب الارشاد: عبد القادر عوده، محمد فرغلي؛ هنداوي دوير، وإبراهيم الطيب، وكان محمد نجيب قد أعرب عن رأيه في إتفاقية الجلاء في مذكرة خاصة سلمت لأعضاء مجلس قيادة الثورة، بينما طبعها ووزعها الإخوان المسلمون خفية ودون موافقة، مما أدى إلى سلبه وأجباته كرئيس للجمهورية في منتصف نوفمبر ووضعه رهن الإعتقال في منزله.

بنهاية نوفمبر، أي بعد الإنقلاب بعامين وأربعة أشهر، كان الشخص الراعي لحركة الضباط، وقيادتهم المعلنة قد أبعد، وألغيت الأحزاب ووضعت قياداتها في السجون، وأغلقت الصحف الليبرالية المعارضة وأهم حركة دينية سياسية إسلامية في القرن العشرين قد أجبرت على الهبوط تحت الأرض للعمل السري، وتم إجهاض إنقلاب مضاد، وتم قمع المنظمات النقابية المهنية والعمالية والاتحادات الطلابية أو تطهيرها.

كان واضحاً أن إستقالة محمد نجيب في فبراير ١٩٥٤ وما تلاها من خلافه مع أعضاء مجلس قيادة الثورة حول قضايا سياسية وتحديد السلطات، كانت لها نتائج خطيرة وسط الرأي العام الذي كان يمقت الضباط. لكن رد فعل الرأي العام على إستقالة نجيب لم يكن هو العامل الحاسم. فلقد أخذ الضباط حذرهم، خوفاً من انقسامهم حيال تلك القضية. فلقد تكاتف أنصار الإخوان المسلمين والضباط الصغار والشيوعيون لإعادة نجيب إلى منصبه. وذاعت قصة وقتها مفادها أن ضباط الفرسان بقيادة خالد محيى الدين قادوا مظاهرة مسلحة تأييداً لمحمد نجيب، وأن عبد الناصر كان «يكلم نفسه» للخروج من هذا المأزق في ثكنات العباسية.

كانت هذه الحادثة أول مؤشر على إنقسام الضباط الأحرار وحركة الجيش، وطرحت

ضرورة القيام بحركة تطهير شاملة منظمة في الجيش. . وأدرك عبد الناصر القائد الفعلي لمجلس قيادة الثورة هذه الضرورة مبكراً، عندما أزاح مجلس قيادة الثورة رشاد مهنا من مجلس الوصاية في أكتوبر ١٩٥٢.

في نفس الوقت، شجعت تلك الحادثة الجماعات السياسية المتضررة لتصعيد توددها إلى نجيب. وقبل أن يعود نجيب رئيساً للوزراء مرة أخرى، أصبح عبد الناصر حاكماً عسكرياً لمصر، وهو إجراء قصد به عرقلة الإنحياز المحتمل من نجيب إلى صف القوى السياسية. وأتاح أيضاً لمجلس قيادة الثورة تشكيل لجان تطهير إجتاحت القوات المسلحة.

رغم أن عبد الناصر قد إستخدم تكتيكات ماهرة لتجريد خصومه من سلاحهم، إلا أنه لجأ في الخامس من مارس إلى التقارب مع الجماعات السياسية، عندما أعلن مجلس قيادة الثورة قراراته بإعادة الصيغ البرلمانية، والبدء بإنتخاب الجمعية التشريعية في شهر يونيه من نفس العام. ولتضليل خصومه وأعدائه، أمر الضباط بالإفراج عن بعض السجناء السياسيين، وبوجه خاص أعضاء جماعة الإخوان المسلمين الذين تم إعتقالهم في بداية نفس العام. والمسألة التي ظلت هائمة دون حل، والتي وحدت الأحزاب السياسية، كانت هي أنصار القيادة في صفوف الجيش، وما إذا كان مجلس قيادة الثورة سيحل نفسه طواعية طبقاً لقرارات الخامس من مارس وما وعدت به.

وإستدرج الصحفيون الوفديون والإشتراكيون والشيوعيون برفع الضباط الأحرار قبضتهم الصارمة عن الصحافة، وأعلنوا إنحيازهم لصف محمد نجيب. وفي تلك الأثناء، صارت شبكة العمل السرية للضباط الأحرار تعمل مستقلة، تحت قيادة عبد الناصر لمواجهة أية عودة محتملة للأحزاب القديمة للسلطة. وكانت هيئة التحرير بقيادة عبد الناصر سكرتيرها العام والضباط الموالين له قادرة على تنظيم الطلاب ونقابات العمال في مظاهرات جماهيرية حاشدة ضد المطالبة بعودة الحياة الدستورية. وكانت مظاهرات ٢٥ ـ ٢٧ مارس في القاهرة والاسكندرية، والإضراب الشامل لعمال النقل والمواصلات العامة، إعلاناً عن السيطرة التامة والإنضباط الذي حققته هيئة التحرير بوصفها ذراعاً لمجلس قيادة الثورة، بوجه عام، ولعبد الناصر على نحو خاص. والأهم، كانت معارضة الضباط لإقتراح تخلي المجلس عن سلطاته في يوليو ١٩٥٤ وتهديدهم بإغتيال أعضاء المجلس لو صمموا على ذلك. وربما كان هذا تعبيراً عن الولاء لعبد الناصر وقيادته لحركة الجيش، وإيعازاً لحركة الجيش بأن تزيح أي معارضة لها. وفي ٢٨ مارس أعلن مجلس قيادة الثورة تأجيل إنتخابات شهر يونيه المزمعة لأجل غير مسمى، وإبعاد محمد نجيب عن الرئاسة ومجلس قيادة الثورة.

نجيب في مواجهة ناصر

كان الصدام بين نجيب وعبد الناصر حتمياً ولا مفر منه، إن لم يدخل في الحساب سوى فروق العمر والجيل. ورغم سجل نجيب العسكري المشرف نسبياً ونزعته المتعاطفة مع صغار الضباط وهمومهم في ظل الحكم الملكي، كان نجيب بالمزاج والخبرة ـ وربما من الوجهة المهنية ـ أكثر قرباً من العناصر الليبرالية من النظام القديم، منه إلى رفاقه الشبان الراديكاليين في عام ١٩٥٢. وبوصفه قادم طارىء عليهم من خارجهم، والقائد المعلن لإنقلاب الضباط الشبان الناجح، فلقد إستعار الدور الرسمي للسلطة دون القدرة على المضي به. فلقد كان عجوزاً بما يكفي لإقناع الرأي العام بجدية القائمين بالإنقلاب، وفي نفس الوقت، مقتنع بضرورة تنظيف الحياة السياسية المصرية لقبول مغامرة التورط لإنتزاع سلطة الدولة بالقوة. وبمجرد أن فرض مجلس قيادة الثورة سيطرته على الجيش وما تلاه من إستخدامه لتوسيع سيطرته على الدولة، تقلص دور محمد نجيب وبدأ في الذبول.

ولم يكن متاحاً، رغم ذلك، بوصفه أول واجهة للنصر ولحركة الضباط الغامضة، إلّا أن يجتذب تعاطف وتأييد قطاعات عريضة من الرأي العام. وبينما كان متوقعاً أن يزيل العسكر الثائرون النظام القديم، أنعش نجيب طموح الجماهير في إعادة مصر إلى حكم أفضل ديمقراطية. لكن حتى لو كان قد فعل ذلك، فلقد كان كمثل من يشيد قصره على الرمال، لأن السلطة الحقيقية كانت تحت أقدام الجيش، والذي صار في غضون عام واحد تحت السيطرة التامة لعبد الناصر وأنصاره في مجلس قيادة الثورة. ومع ذلك، نجح محمد نجيب في الغالب، لأنه عندما وقع الصدام كان قد إكتسب تأييداً شعبياً قوياً، وبالمثل تأييد ضباط سلاح الفرسان على الأقل. ووجد القادة الحقيقيون لحركة الجيش أنفسهم في فبراير ـ مارس ١٩٥٤ عرضة لهجوم جماهيري، وأجبروا على التراجع في الفترة ما بين ٢٨ فبراير ٢٥ مارس. وتحول التراجع كما ظهر لاحقاً إلى تكتيك ومناورة ماهرة لصالح الجيش ومجلس قيادة الثورة. فلقد أبعد «المدافعين عن الديمقراطية» بوصفهم حلفاء القوى السياسية القديمة الفاسدة، والإخوان المسلمين المتعصبين والشيوعيين الأشرار.

ولقد نسق عبد الناصر المناورات ضد محمد نجيب. وإستخدم صديقه عبد الحكيم عامر في الجيش، وأبعد خالد محيي الدين والضباط الموالين له.

ومن خلال إبراهيم الطحاوي وعبد الله طعيمة في هيئة التحرير، ومن خلال الرشوة المزعومة التي بلغت أربعة آلاف جنيه دفعت الى العيسوي أحمد العيسوي زعيم عمال النقل العام، حيث نظم مظاهرات صاخبة يومي ٢٦ ـ ٢٩ مارس ضد قرارات ٢٥ مارس بإعادة

الحكم البرلماني. بإختصار لم يكن عبد الناصر مستعداً لمشاهدة أعوام الإعداد والتحضير الطويلة للإطاحة بالقصر، وهي تهدر لصالح محمد نجيب. ومنذ البداية طرح بحذر قيادته على الرأي العام الخارجي الثائر ضد بريطانيا والإستعمار. وكان هناك فراغاً في السلطة في مصر، ولو أن أي فرد حاول أن يملأه، فيجب أن يكون عبد الناصر ذاته وليس محمد نجيب.

كان الصراع على السلطة في شهري مارس وفبراير هاماً للمدى الذي يحدد أسلوب عبد الناصر التالي طيلة حكمه.

ولأنه يشكل طبيعة إقترابه من السلطة وتناوله لها. ويحدد ويميز أعداءه ويرسي الأساس لقوته المستقبلية ـ الجيش وكافة المؤسسات الحكومية للدولة ـ خصوصاً عندما جرد الطبقة الثرية في المجتمع من السلطة والقوة. وهكذا أزال الخطر الحقيقي على سلطته، وحيّد أو أزال: بريطانيا، اليمين واليسار الراديكالي، الأحزاب السياسية القديمة، محمد نجيب والضباط. وبوصفه رئيس مجلس قيادة الثورة الفعلي، ونائب رئيس الوزراء، ووزير الداخلية، والسكرتير العام لهيئة التحرير عام ١٩٥٣، أصبح عبد الناصر بنهاية عام ١٩٥٤ رئيساً للوزراء، وبعد عام ونصف رئيساً للجمهورية. وصارت القوة السياسية لجماعته في مجلس قيادة الثورة تعتمد الآن كلياً على دوره هو، وبيروقراطية جهاز الدولة ـ آلة الحكومة ـ صار يشرف عليها ضباط الجيش الذين إعتبروه وضعاً مميزاً يعتمد على بقاء نظام عبد الناصر وقيادته. وكان عمال الصناعة بحجمهم الضئيل يأملون في نظام له توجه صناعي لتحسين وضعهم، والفلاحون الذين أنعشهم الإصلاح الزراعي، صاروا يأملون في المزيد. ولم يعد الضباط يفكرون في القيام بأية إنقلابات مضادة.

وهكذا أصبح البكباشي الهادىء الصامت الكتوم الخجول هو زعيم مصر عام ١٩٥٤، والذي بيده مقاليد السلطة الرهيبة للدولة التي حكمها الفرعون، والأمير المملوكي، والسلطان، والخليفة أو الملك.

سعي عبد الناصر نحو السلطة

يجب التمييز بين الإجراءات المتلاحقة لحركة الضباط الأحرار المبكرة لترسيخ سلطتهم، وفرض سيطرة حركتهم على الدولة من جانب، ومناورات وتكتيكات عبد الناصر الشخصية وسعيه الدؤوب لتحقيق سيطرته على الجانب الآخر. طيلة حياته السياسية، كان عبد الناصر مهموماً بتأكيد تفوقه، وبدأت عملية إزاحة خصومه عام ١٩٥٢ بطرد عبد المنعم عبد الرؤوف، ورشاد مهنا، وانتهت عام ١٩٦٩ بإبعاد علي صبري، وسنهتم هنا بإيضاح سلوك عبد الناصر في سعيه لكسب تفوقه وسلطته.

في يونيو ١٩٥٣ عندما أعلنت الجمهورية، كانت القوى السياسية القديمة محيدة بقدر يتراوح ما بين التحييد التام أو الجزئي. وإندلع الخلاف والتنافس بين الضباط الثوريين، وطيلة العام التالي، تحول إهتمام عبد الناصر كلياً لهذه القضية. في هذا الوقت، كان الخطر الرئيسي على صعود سلطة عبد الناصر يجيء من الجنرال محمد نجيب ذي المظهر الهادىء والذي يدخن «البايب»، الذي إختاره الضباط «قائداً» لهم.

وبعد عشرين عاماً، وهو يعلق على ذكريات محمد نجيب، قلل السادات من دور الجنرال نجيب في إنقلاب ١٩٥٢. وأكد أن نجيب لم يكن له دور، وما حدث بالفعل، طبقاً لرواية السادات، انه في الساعة الثالثة صباحاً يوم ٢٣ يوليو إتصل رئيس الوزراء نجيب الهلالي ووزير الداخلية مرتضى المراغي بالجنرال نجيب يبلغونه بأمر يلزمه بقمع المتمردين.

وإتصل نجيب بعبد الناصر ليعرف ماذا يجري، ودعاه عبد الناصر للإنضمام لهم في مقر قيادة الجيش، وعندما وصل نجيب جعله عبد الناصر «قائد» لحركة الضباط أمام الرأي العام. وفي ١٧ أغسطس، طلب عبد الناصر من رفاقه في مجلس قيادة الثورة أن يختاروا محمد نجيب الذي كان قائداً في الجيش لعبد الحكيم عامر رئيساً للمجلس. وبالنسبة لصراع شهري فبراير ومارس ١٩٥٤ بين عبد الناصر ونجيب قال السادات إنه نشأ بسبب عزم نجيب على إنشاء مجلس رئاسي يضم إليه ممثلي الإخوان المسلمين وباقي الأحزاب السياسية . . .

ولقد خطط عبد الناصر لطرد وإبعاد نجيب بوصفه عدواً للثورة يتحالف مع السياسيين القدامى والإخوان. واكتسح عبد الناصر بموقفه المتميز في الصراع، وبوصفه سكرتيراً عاماً لهيئة التحرير، إستطاع حشد الجماهير خلف إرادته، وإستخدام أدوات دعاية جديدة، ومن خلال ضباطه، إستطاع تحريك وإثارة نقابات العمال. وبوصفه وزيراً للداخلية في نفس الوقت سيطر على قوات الأمن. وفوق كل ذلك، إستطاع حشد الضباط ضد إعادة الحكم المدني بتذكيرهم بسلطتهم. وكانت نقطة الضعف الرئيسية في جانب عبد الناصر هي أن محمد نجيب صار في مخيلة الجماهير نصيرهم ضد الفساد. وجسدت شعبيته تهديداً خطيراً لعبد الناصر وباقي الضباط الأحرار.

رأى كل من الإخوان واليسار في محمد نجيب ورقتهم الرابحة للفوز بالسلطة ضد أوتوقراطية عبد الناصر وضباطه، وغالبية أعضاء مجلس قيادة الثورة. حاولت كلا الجماعتين إستخدام محمد نجيب لصالحها. وهذا تسبب في حدوث إنشقاق في الرأي العام وفي صفوف ضباط الجيش. بإختصار، صار الرجل الذي إختاره الضباط بأنفسهم ليكون قائدهم، في وضع التحدي لسلطة مجلس قيادة الثورة ولإجبار الجيش على العودة الى ثكناته. وطالبت

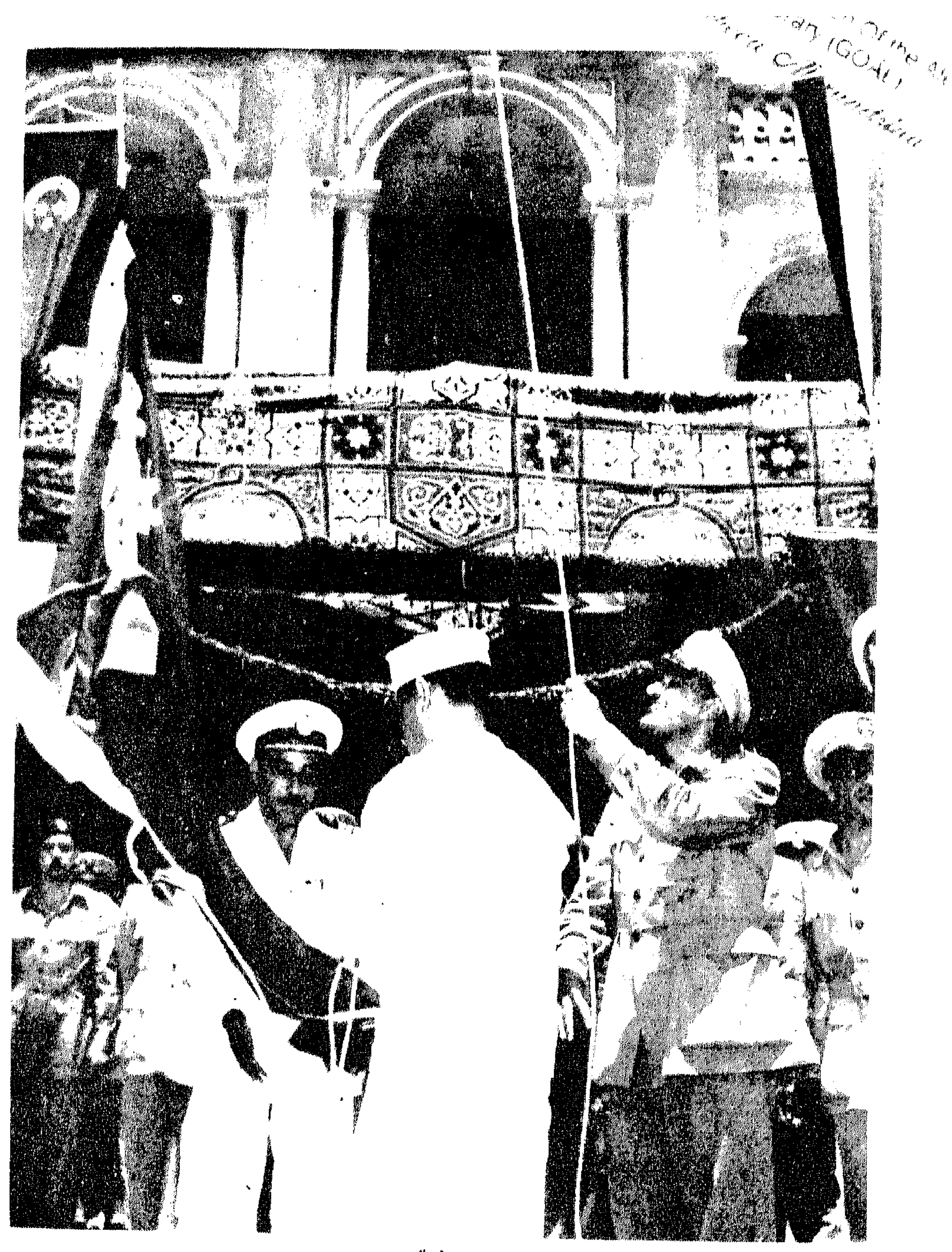
مظاهرات فبراير ـ مارس ١٩٥٤ بإعادة الأحزاب السياسية والدستور. ووحد اليمين واليسار قواهم خلف محمد نجيب، وقاد خالد محيي الدين ضباط سلاح الفرسان تأييداً لنجيب، وتم حل مجلس قيادة الثورة. لكن مؤيدي عبد الناصر في هيئة التحرير ونقابات العمال نظموا مظاهرات مضادة.

وإعتبر محمد حسنين هيكل هذا إكتساحاً من جانب عبد الناصر، وكذلك إعتبر، كمال الدين حسين وآخرون. «إن كنتم تريدون نجيب، بإمكانكم ذلك. إن كنتم تريدون الأحزاب السياسية وعودتها يمكنكم تحقيق ذلك» لكن قبل طرحه لهذه المناورة كان عبد الناصر واثقاً من وجود الجيش في قبضته.

ومن خلال الإصلاح الزراعي، وحل الأحزاب السياسية القديمة، وإلغاء الحكم الملكي، والقضاء على الفساد، والمحاكم الثورية والعسكرية، أزاح عبد الناصر وتخلص من التهديد الذي يعترض سلطته من المؤسسات السياسية القديمة. وفي صراعه الناجح ضد محمد نجيب، أضعف قدرة الإخوان على الرد على حظر نشاطهم وحلهم. وبرده الحاسم والسريع على الإضطرابات العمالية في كفر الدوار، بعد قيام الإنقلاب بشهر واحد، أعطى إشارة تحذير لليسار انه لن يسكت على إثارتهم وتحريضهم. في نفس الوقت، أتاح له توقيع إتفاقية السودان في فبراير ١٩٥٣، ومفاوضات الجلاء في اكتوبر ١٩٥٤، التحرر ليركز كرئيس وزراء على ترسيخه لسلطته الداخلية. وأمدته وزارة الإرشاد القومي في ظل صلاح سالم ومن بعده فتحي رضوان عضو الحزب الوطني الراديكالي، بأدوات الدعاية المطلوبة.

وتوالت ضربات الحظ في شكل سلسلة من الحوادث التاريخية طيلة عشرين شهراً منذ فبراير ١٩٥٥ حتى اكتوبر ١٩٥٦، من الغارة الإسرائيلية على غزة، وحلف بغداد، ومؤتمر باندونج، وصفقة السلاح السوفياتية، وتأميم قناة السويس وما تلاها من حرب. كل هذه الأحداث، أمدته بمصدر إقليمي ودولي جديد للنفوذ والشعبية والسلطة لم يتخيلها أي من منافسيه. ففي ١٩٥٤ تمتع بشهرة شعبية بوصفه مقاتلاً ماهراً، مفاوضاً حاسماً، واقعياً، ومواجهته الصارمة للإخوان القتلة والشيوعيين الأشرار. ونشر كتابه «فلسفة الثورة» عندئذ لتجسيد صورته كبطل في مخيلة الجماهير وعقولهم.

المحتويات



١٨ يونية ١٩٥٦

يوم الجلاء . . . عبد الناصر يرفع العلم فى بورسعيد

هذا الكتاب ليس سيرة حياة عبد الناصر بالمعنى التقليدي، وليس دراسة تاريخية مفصلة للنظام الناصري. بل إن هذا الكتاب يعتبر تفسيراً لحياة عبد الناصر بوصفه رئيساً لمصر وزعيماً مستقبلياً للأمة العربية في فترة تاريخية حرجة تعتبر نقطة تحول في تاريخ المنطقة. وفوق ذلك، يقدم الكتاب عبد الناصر ممثلاً لجيل من المصريين وصل كثير منهم على جناحه الى السلطة، وربما خدموا مبادئه، بقدر أقل أو أكثر، وربما تناسوا لاحقاً.

لذلك فالكتاب ليس محاولة لرسم صورة سياسية لعبد الناصر، بل لجيل كامل من المصريين. وقد أولى المؤلف إهتماماً بالحركات والجماعات التي ظهرت في مصر قبل ثورة ٢٣ يوليو (جماعة مصر الفتاة، الإخوان المسلمين، جناح الطليعة الوفدية، جماعات شباب الحزب الوطني، الجماعات الماركسية والمنظمات الشيوعية، الجماعات الارهابية من ضباط الطيران، ومعظم جيل عبد الناصر من ضباط الجيش).

البروفسور فاتكيوتس (بنايوتس جيراسيموس) اليوناني الاصل، وأستاذ العلوم السياسية في جامعة لندن، ورئيس قسم العلوم السياسية في معهد الدراسات الشرقية والافريقية. معروف بمعاداته للنهج الناصري الوطني والقومي التحرري. حصل على اجازته الجامعية من الجامعة الاميركية بالقاهرة، ودرجة الدكتوراه من جامعة جونز هويكنز في الولايات المتحدة. وقام بالتدريس في جامعات كاليفورنيا وبرنستون بالولايات المتحدة، وترأس مركز البحر المتوسط للدراسات العربية والاسلامية في أثينا باليونان، ويشرف على تحرير مجلة الدراسات الشرق أوسطية في لندن، وله العديد من المؤلفات عن مصر والسياسة العربية.

